عدد ممتاز خاص عن
الروائي.. إسماعيل فهد إسماعيل

البيان
مجلة أدبية ثقافية شهرية
تصدر عن رابطة الأدباء الكويتيين
العدد 582 يناير 2019

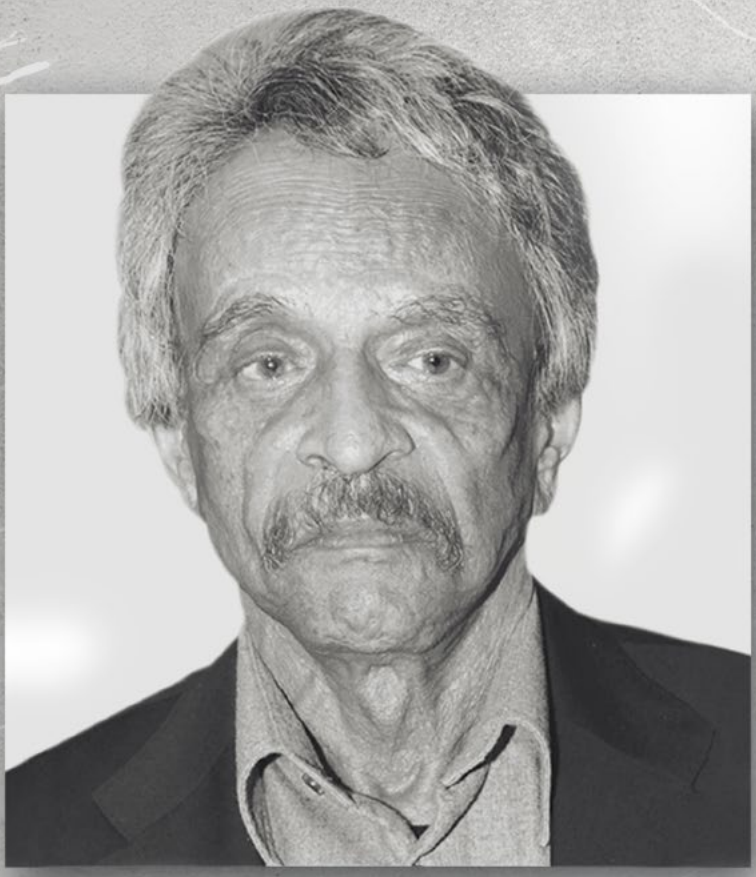

إسماعيل فهد إسماعيل..
حياة كتابة باقية

العـــــدد 582 يـنـايـر 2019

مـجـلـــة أدبيـة ثقافيـة شهـرية
تصدر عـــن رابطـــة الأدبـــاء الكويتيين

صدر العدد الأول في أبريل (1966)

الإشـــــراف الـعـــام
طـلال سـعـد الرميضـي

رئـــيس الـتـحـريـــر
عـائـشـة الـفـجـري

الـهـيـئـة الاسـتـشـاريـة
د. فيصـل القحطانـي
د. صـبـاح الســويفان

سـكـرتـيـر الـتـحـريـر
عـــدنـــان فـــــرزات

الـتـدقـيـق الـلـغـوي
خـلـيـل الســـلامـة

الإخـــــراج الـفـنـي
مـحـمـد الخـطـيـب

موقع رابطة الأدباء على الإنترنت
www.alrabeta.org

البريد الإلكتروني
elbyankw@gmail.com
elbyan@hotmail.com

وزارة الإعلام - مطبعة حكومة دولة الكويت

مجلة «البيان» مجلة أدبية ثقافية، تصدر عن رابطة الأدباء في الكويت، وتعنى بنشر الأعمال الإبداعية والبحوث والدراسات في مجالات الآداب والعلوم الإنسانية، ويتم النشر فيها وفق القواعد التالية:

1 - أن تكون المادة خاصة بمجلة البيان وغير منشورة أو مرسلة إلى جهة أخرى.
2 - المواد المرسلة تكون مطبوعة ومدققة لغويا ومرفقة بالأصل إذا كانت مترجمة.
3 - يفضل إرسال المادة محملة على CD أو بالإيميل.
4 - موافاة المجلة بالسيرة الذاتية للكاتب مشتملة على الاسم الثلاثي والعنوان ورقم الهاتف ورقم الحساب المصرفي.
5 - المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها فقط.
6 - مكافأة النشر 100 يورو، ويسقط حق المطالبة بها في حال عدم استلامها بعد 6 أشهر.

ثـمـن الـعـدد

الكويت: 500 فلس، البحرين: 750 فلسًا، قطر: 8 ريالات، دولة الإمارات العربية المتحدة: 8 دراهم، سلطنة عمان: ريال واحد، السعودية: 8 ريالات، الأردن: دينار واحد، سورية: 50 ليرة، مصر: 3 جنيهات، المغرب: 10 دراهم.

الاشتراك السنوي

للأفراد في الكويت: 10 دنانير
للأفراد في الخارج: 15 دينارًا أو ما يعادلها
للمؤسسات والوزارات في الداخل: 20 دينارًا كويتيًا
للمؤسسات والوزارات خارج الكويت: 25 دينارًا كويتيًا أو ما يعادلها

المـــراســـلات

رئيس تحرير مجلة البيان
ص.ب 34043 العديلية - الكويت، الرمز البريدي 73251
هاتف المجلة: 22518286 965+
هاتف الرابطة: 25106022 / 22518282
فاكس: 22510603

Al Bayan

LITERARY MAGAZINE ISSUED
BY KUWAITI WRITERS' ASSOCIATION
(582) January 2019

General Supervision
Talal Saad Alrumaidhi

Editor in chief
Aisha Al-Fajri

Advisory Body
Dr. Faisal Al-Qahtani
Dr. Sabah Al-Swifan

Correspondence Should be Addresses to:

The Editor,
Al Bayan Magazine
P.O.Box: 34043 Audilyia - Kuwait
Code: 73251 - Fax: +965 22510603
Tel.: (Magazine) +965 22518286 - 22518282 - 22510602

المحتوى

كلمة البيان 5

- نشعر بفقده ولا نشعر بغيابه ..... البـــيـان 6

عدد خاص عن الروائي الراحل إسماعيل فهد إسماعيل 9

- السيرة الذاتية.. إسماعيل فهد إسماعيل 10
- إسماعيل فهد إسماعيل.. حياة كتابة باقية ..... طالب الرفاعي 12
- إسماعيل فهد إسماعيل.. هذه المعابد للقراء ..... إبراهيم عبد المجيد 16
- إسماعيل فهد إسماعيل وحكاية اللقاء.. في الصحراء ..... إبراهيم نصر الله 20
- إسماعيل فهد إسماعيل.. أول روائي كويتي قرأت له ..... الحبيب السالمي 24
- كيف نقرأ إسماعيل فهد إسماعيل؟ ..... إلياس فركوح 26
- إسماعيل فهد إسماعيل.. أيموت من بضاعته المحبة؟ ..... حمّور زيادة 28
- إسماعيل فهد إسماعيل.. رائد الرواية في الكويت ..... خالد سالم الأنصاري 32
- إسماعيل فهد إسماعيل.. الكلمة والفعل ..... د. سليمان الشطي 36
- شهادة الشاعر صلاح عبدالصبور رواية «كانت السماء زرقاء» رواية القرن العشرين ..... صلاح عبدالصبور 38
- إسماعيل فهد إسماعيل.. «نخلة عطاء دائم» ..... عبدالإله عبدالقادر 42
- إسماعيل فهد إسماعيل .. نصف قرن من التجريب والمغامرة ..... عبدالكريم المقداد 46
- هل حقاً رحل إسماعيل؟ ..... عبده خال 58
- إسماعيل فهد إسماعيل... إمكانيات روائية ..... علي المقري 62
- إسماعيل.. وعرس الرحيل ..... د. غانم النجار 66

- إسماعيل.. طرح النقد عليه ..... قاسم حداد 70
- في غياب الخل الوفي ..... ليلى العثمان 72
- صَدَمات ومُعادَلات في تجربة إسماعيل فهد إسماعيل الروائية .... محمد خضير 78
- برازخ في العالم الروائي لإسماعيل فهد إسماعيل ..... نبيل سليمان 84
- إسماعيل فهد إسماعيل حبيبٌ في القلب وفي الذاكرة الروائية .... واسيني الأعرج 90

محطات قلم 96

- رحيل والد الأجيال الروائية ..... طلال سعد الرميضي 96

كلمة البيان

نشعر بفقده ولا نشعر بغيابه

لا فرق في أن تعرف الأديب الراحل إسماعيل فهد إسماعيل على الواقع أو من خلال كتاباته، فهو واحد لا ينفصل كشخص أو ككاتب.

بإمكانك أن تتعرف إلى سلوك وأخلاقيات وشخص هذا المبدع سواء التقيت به أو اكتفيت بالقراءة له. فهو لا يمتلك ازدواجية بين ما يؤمن به على أرض الحقيقة، وبين ما يكتبه في أعماله الأدبية. ربما كان هذا أحد أهم أسباب محبة الناس له ممن عرفوه عن كثب أو ممن قرأوا أعماله التي انغمست بالإنسانية إلى الدرجة التي أصبحت كونية في طرحها تلامس شغاف الإنسان أينما كان هذا الإنسان.

تميز الأديب الراحل إسماعيل، يرحمه الله، وميّز معه مرحلة جديدة من الرواية في الكويت. فقبل فترة السبعينيات-التي ظهر فيها إسماعيل فهد إسماعيل- لم تكن الرواية الكويتية قد أخذت ملامح واضحة، إلى الدرجة التي اختلف فيها النقاد على نشأة الرواية، هل هي في عام 1948 من خلال عمل الأديب فرحان راشد الفرحان "آلام صديق"، أم هي تبدأ من خلال عمل الأديب عبدالله خلف "مدرسة من المرقاب" في عام 1962. إلى أن جاءت أعمال إسماعيل فهد إسماعيل لترسم خريطة علمية جديدة للرواية، وهو ما شهد له به العديد من النقاد ومؤرخي الرواية في الكويت.

هذا التميز يتطلب عدة مؤشرات، حقق منها الراحل شرطين أساسيين، الأول يكمن في البناء الفني الظاهري للرواية، فكتب وفق أسس علمية من السرد والحوار والوصف وبناء الشخصيات وتصاعدها. أما الأمر الثاني فيتمثل في المضمون الروائي لديه، فقد خرج عن النمط الاجتماعي في آلية الطرح حتى وإن ظل تحت سقفه، ثم فتح نوافذ الأفكار على آفاق أشد اتساعاً من خلال معالجته لعذابات الإنسان ليس في الواقع الاجتماعي فقط، بل وفي السجون والمعتقلات، وربما استثمر ببراعة تجارب شخصية له في هذا المجال.

عندئذ بدأت أعمال إسماعيل فهد إسماعيل تلفت الأنظار وقد ساعده في ذلك طبيعة الزمن في بداياته، حيث كانت الأقطار العربية تعيش تحولات سياسية واجتماعية كبيرة ونشطت التيارات بمختلف اتجاهاتها اليمينية واليسارية والقومية وغيرها.. كان ثمة حراك متقد في فترة السبعينيات والثمانينيات، وبدأت الساحة العربية تتحول إلى ميدان صراعات بين التيارات، ولكن إسماعايل فهد إسماعيل لم يكن منحازاً بشكل فج لأحد حتى وإن وضع أفكاره التي يؤمن بها في كتاباته، إلا أنه وضعها بشكل تنويري وليس بتشنج سياسي.

تميزت حياة إسماعيل فهد إسماعيل أيضاً بأنه كان محركاً للعمل الثقافي بشكل فردي، فقد كان بمفرده بمثابة مؤسسة ثقافية يغذي الشباب بالأفكار ويحثهم ويشجعهم على الكتابة، وجعل من مكتبه منتدى ثقافياً، وكان الراعي للكثير من المواهب الشبابية التي وصل أصحابها إلى مراحل متقدة عربياً وعالمياً.

كان، يرحمه الله، غزير الإنتاج ومتعدد الاتجاهات الأدبية، فقد اهتم بكثير من أنواع الإبداع كالمسرح والفنون وغيرها.

وإذا تفرد مجلة البيان في هذا العدد صفحات لمسيرة الراحل وشهادات أدبية ونقدية بحقه، فهو لا شك يستحق أكثر، وهو ما نعول عليه من المؤسسات الأخرى أن تولي اهتمامها لأديب وضع بصمةً للرواية الكويتية في سجل الأدب العربي والعالمي، لذلك صحيح أننا نشعر بفقده إلا أننا لا نشعر بغيابه.

البيان

عدد خاص عن الروائي الراحل

إسماعيل فهد إسماعيل

إشراف: أ. طالب الرفاعي

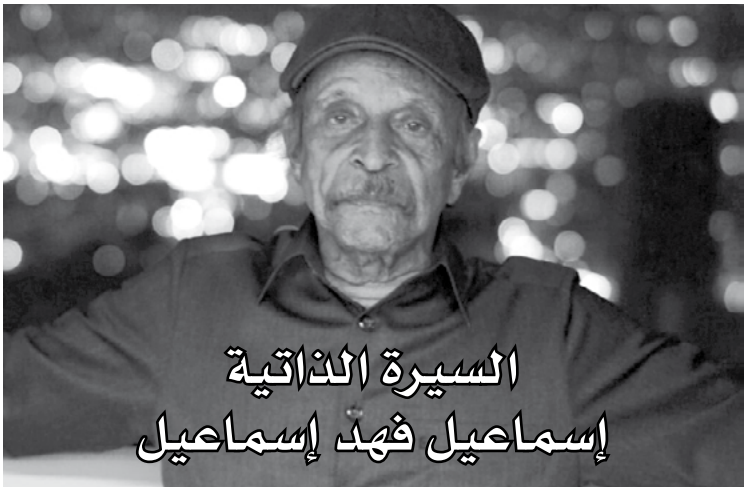

- إسماعيل فهد إسماعيل.
- ولد في العراق عام ١٩٤٠م. وعاش ومات في الكويت
- روائي وقاص وناقد.
- حاصل على البكالوريوس - المعهد العالي للفنون المسرحية عام ١٩٧٩م.
- عمل مدرساً بمدرسة المتنبي المتوسطة.
- رئيس قسم الوسائل السمعية في إدارة التقنيات التربوية بوزارة التربية.
- موجه فني في إدارة النشاط المدرسي ووزارة التربية.
- امتهن الكتابة الإذاعية والتلفزيونية.
- تفرغ للكتابة الأدبية والدراسات النقدية.
- فاز بجائزة الدولة التشجيعية في مجال الرواية عام ١٩٨٩م عن عمله (النيل الطعم والرائحة).
- فاز بجائزة الدولة التشجيعية في مجال الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية عام ٢٠٠٢م عن كتابه (علي السبتي شاعر في الهواء الطلق).
- فاز بجائزة الدولة التقديرية عام ٢٠٠٤م.

من أعماله الأدبية

- البقعة الداكنة – مجموعة قصص قصيرة صدرت ١٩٦٥م.
- كانت السماء زرقاء – رواية صدرت عام ١٩٧٠م.
- المستنقعات الضوئية – رواية صدرت عام ١٩٧١م.
- الحبل – رواية صدرت عام ١٩٧٢م.
- الضفاف الأخرى – رواية صدرت ١٩٧٣م.
- ملف الحادثة ٦٧ – رواية صدرت عام ١٩٧٤م.
- الأقفاص واللغة المشتركة – مجموعة قصص صدرت عام ١٩٧٤م.
- الشيّاح – رواية صدرت عام ١٩٧٦م.
- خطوة في الحلم – رواية صدرت عام ١٩٨٢م.
- الطيور والأصدقاء – رواية صدرت عام ١٩٨٢م.
- النيل يجري شمالاً (البدايات) – رواية صدرت عام ١٩٨٢م. النيل يجري شمالاً (النواطير) – رواية صدرت عام ١٩٨٣م.
- النيل الطعم والرائحة – رواية صدرت عام ١٩٨٩م.
- إحداثيات زمن العزلة – رواية طويلة من سبعة أجزاء، صدرت عام ١٩٩٦م، ترصد وتوثق، بأسلوب روائي، أحداث الاحتلال من الغزو إلى التحرير.
- القصة العربية في الكويت – دراسة طبع ١٩٧٧م.
- الكائن الظل – رواية صدرت عام ١٩٩٩م.
- سماء نائية – رواية صدرت عام ٢٠٠٠م.
- للحديث بقية ابن زيدون – مسرحية طبعت عام ٢٠٠٨م.
- ما لا يراه النائم – مجموعة قصصية صدرت عام ٢٠٠٩م.
- عندما رأسك في طريق واسمك في طريق أخرى – صدرت عام ٢٠١١م.
- في حضرة العنقاء والخل الوفي – رواية صدرت عام ٢٠١٢م.

إسماعيل فهد إسماعيل
حياة كتابة باقية

كنا، المرحوم إسماعيل فهد إسماعيل وأنا، في زيارة لبيت الصديق المرحوم الشاعر العربي الكبير عبدالرحمن الأبنودي حين أهديته نسخة من كتابي «إسماعيل فهد إسماعيل.. كتابة الحياة وحياة الكتابة»، وبعد أن تصفح الأبنودي الكتاب، خاطبني بلهجته المصرية المحببة:

«دا عمنا إسماعيل عايش بين الكتابة والكتابة.»

بقلم: طالب الرفاعي *

نعم، لقد عاش إسماعيل فهد إسماعيل (1940-2018) منذ طفولته وحتى أيامه الأخيرة بين الكتب. ولو قُدّر لي يوماً أن أرسم لوحة تشكيلية لحياة إسماعيل، لرسمت بستاناً مليئاً بالكتب، وجعلت إسماعيل جالساً بينها.

تفتّح وعي إسماعيل على أهمية القراءة وهو في سن مبكرة، حين أصرَّ عليه والده الضرير أن يتعلم القراءة، وأن يقرأ له، للأب وأصدقائه، قصص «ألف ليلة وليلة».

«دون إرادتي وجدتُ نفسي قارئاً في جمع الرجال أصدقاء أبي، ودون إرادتي تولّدت علاقتي بالحرف والكلمة والقراءة والكتاب.»

هذا ما قاله إسماعيل مراراً وفي أكثر من لقاء ومحفل.

هي القدرية ساقت الطفل الموهوب والذكي إسماعيل إلى الحرف والكلمة والقراءة والكتابة، وهو إسماعيل ذلك الصبي والشاب عاشق المغامرة وصخب جديد الحياة، ما لبث أن أدرك أن القراءة والكتابة ثوب لامع وزاهٍ وجميل يقدّمه للآخر، ويخطو به على درب الحياة.

* كاتب كويتي.

كأن بعضنا مرصود لمهمة بعينها، وحدها تحتل أيامه، ووحدها ترسم وتلوّن لوحة عيشه طوال عمره. وهذا شأن إسماعيل، لم يكن الفكر والقراءة والكتابة في يوم ما ترف يمرّ به، ولا هو هواية، ولا نزوة، بل بدا وكأنه منذور لمهمة مقدّسة ومُرسَلٌ لها، وشيئاً فشيئاً صار الفكر والقراءة والكتابة، رتم لحظة عيشه، ومذاقه وطعمه وحلوه ومره.

الطفل الذي بدأ حياته قارئاً للقصص والحكايا في «ديوان» أبيه، ما لبث أن شبَّ متلفّتا ومتأملاً بما حوله من أفكار ونظريات، وما لبثت أيادي فكر الخير والإنسان والمساواة أن أحاطت به وأحاط بها. أغرته واستمالته ولامست روحه. لذا حملها في قلبه، وراح يبشر بها في عيشه وأهل بيته وأصدقائه وكتاباته وجميع كتبه. أفكار تُعلي من شأن الإنسان، وتنادي بحياة الحرية والسلام والديمقراطية، وتصرّ على حق الإنسان المطلق بعيش كريم، وتناضل إلى جانب حق المرأة، وحق الطفل، وحق الفقير، وحق المغترب، وحقوق كل منْ يُداس على حقوقهم. هكذا تشرب وعي وروح إسماعيل بهذه الأفكار الإنسانية، دون النظر إلى جنس ولون وعقيدة وجنسية الآخر، وهكذا نذر عمره، وراح يناضل قراءة وكتابة ليفهما أكثر ويصرخ عالياً عبر كتاباته مشيراً إليها.

عام 1965، انطلق إسماعيل فهد إسماعيل يحلّق عبر مجموعته القصصية الأولى «البقعة الداكنة»، لكن حضوره العربي الأكبر ولِدَ مع

ميلاد روايته «كانت السماء زرقاء»، 1970، يوم قدّمه الشاعر المصري الكبير صلاح عبدالصبور، ويوم صارت روايته، منشوراً إبداعياً تتناقله الأيدي على طول وعرض أقطار الوطن العربي، ويومها تكرّس إسماعيل فهد إسماعيل كاتباً روائياً عربياً، يكتب إلى جانب معاناة الإنسان المطلق.

الكتابة، وكأي ممارسة بشرية، بقدر ما تخلص لها تخلص إليك، ولأن إسماعيل أخلص لكتاباته إخلاص العاشق الوله، فإنها ظلت ترافقه بحنو حضورها طوال عمره. وهذا ما انعكس على تنوع كتابات إسماعيل بين؛ القصة والرواية والمسرح والنقد والسيرة، وهذا ما انعكس أكثر على غزارة إنتاجه، بثلاثة وأربعين كتاباً، خلفها بعده، لتبقى حاضرة تشير إليه، وتكون وصله المتجدد والباقي بأجيال وأجيال تأتي من بعده.

إلى جانب عشقه للقراءة والكتابة، فإن إسماعيل كان عاشقاً لصداقة الإنسان، لذا عُرف على طول وعرض الوطن العربي، وعُرف أكثر في وطنه الكويت، بوصفه بؤرة إبداع ووصل إنساني لكل من يقترب منه.

منْ يعرف إسماعيل فهد إسماعيل، فإنه يعرف حتماً كيف أنه فتح قلبه وروحه قبل بيته ومكتبه، منذ شبابه ومرورا بكل مراحل حياته، ليكون بيتاً ومكتباً وملتقى لجميع الأصدقاء الأحبة بكل الأعمار والأفكار والتوجهات والهوايات والأصوات والهمس والبوح. لذا شكّل إسماعيل فهد إسماعيل، عبر ممارسته لحياته اليومية، ظاهرة إبداعية إنسانية كويتية عربية، وكان وصل الكويت الأجمل بكل كتّاب وفناني الوطن العربي، وكان وجهاً مشرقاً من وجوه الكويت، وقبلة لكل من يأتي لزيارتها.

مساء الأحد، 23 سبتمبر 2018، وفي الظهور الأخير لإسماعيل فهد إسماعيل، قدّمته في أمسية الملتقى الثقافي، في بيتي، قائلاً:

«نلتقي اليوم مع «صندوق أسود آخر» الرواية الأخيرة للأستاذ إسماعيل فهد إسماعيل.»

يومها قاطعني الصديق الدكتور سليمان العسكري محتجاً بلطفه:

«لا تقل الرواية الأخيرة، فمؤكد أن جعبة إسماعيل فيها الكثير من الكتابات.»

بعدها بيوم واحد، وفي فجر الثلاثاء 25 سبتمبر 2018، انتقلت روح إسماعيل فهد إسماعيل لبارئها.

أخي دكتور سليمان، لا أدري ما الذي أنطقني في تلك الليلة بتلك العبارة! ولم أكن أدري أن ال «صندوق أسود آخر» ستكون هي آخر هدايا إسماعيل من صندوق عمره للقارئ، لكني وكما تذكر ختمت الأمسية قائلاً:

«مؤكد أن إسماعيل فهد إسماعيل سيبقى ما بقي الحرف والكتابة والقراءة.»

سلامٌ لروحك الطيبة

يا خالي الغالي.

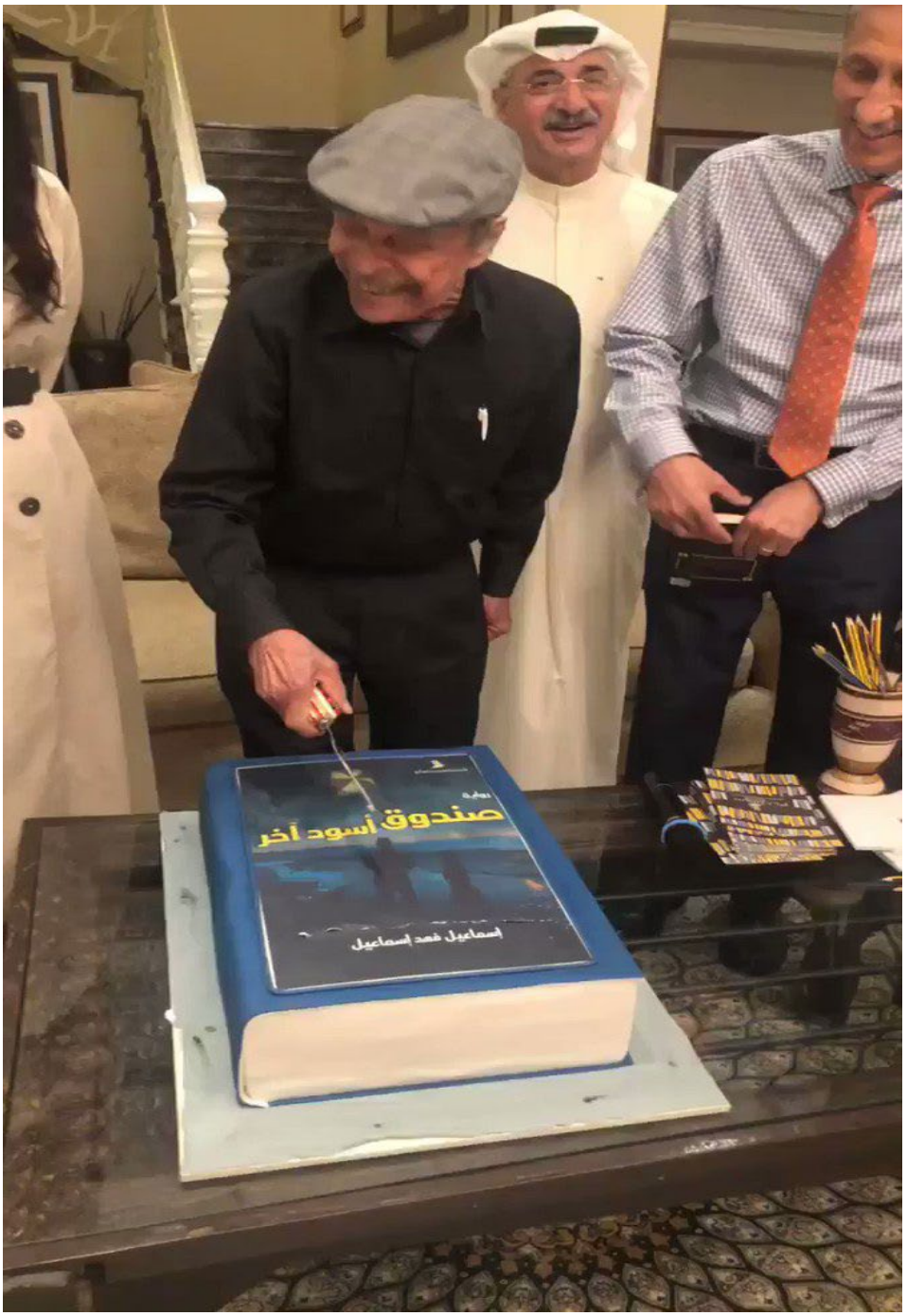
رواية
صندوق أسود آخر
إسماعيل فهد إسماعيل

إسماعيل فهد إسماعيل .. هذه المعابد للقراء

بقلم: إبراهيم عبد المجيد *

في الخامس والعشرين من سبتمبر الماضي نزل علىَّ خبر وفاة إسماعيل فهد إسماعيل كالصاعقة. أعرف أن الموت لم ولن يستثني أحدا، لكن أن تظل عمرك تقرأ لكاتب وتحبه لا تدرك أبدا أن السنين التي تمر تترك أثرها عليه خاصة حين يكون كاتبا مجددا ولا يكف عن التجديد في شكل الكتابة وموضوعاتها. الكاتب نفسه الذي يفعل ذلك لا يدرك مرور الأيام فالكتابة والفن عموما هي عالمه الشاب المتمرد الذي ينتقل إلي الورق أو اللوحة أو الفيلم أو غيرها. هذا الإحساس عند الكاتب أو الفنان ينتقل إلي القارئ حين يقرأ له أو يشاهد له عملا مدهشا. هكذا كان إحساسي بإسماعيل فهد إسماعيل دائما منذ قرأت له منذ سنوات طويلة رواية «الشياح» وكانت أول رواية أقرأها له.

أذكر أني قرأتها في ليلة واحدة بفعل تدفق لغتها وتراكم وانهمار أحداثها أثناء الحرب الأهلية اللبنانية التي بدأت عام 1975. لم أكن قرأت له من قبل كما قلت رغم أنه كتب الكثير قبلها.

بقدر ماقرأت بعد «الشياح» من أعمال شعرية وقصصية عن حرب لبنان ظلت

* كاتب مصري.

«الشياح» تملأ روحي ومشاهد منها لا أنساها أثناء الحصار في منطقة الشياح والمدهش أنها كانت أول رواية عن الحرب الأهلية اللبنانية وتأتي من غريب ذهب صدفة لمعايشة أحوال اللاجئين بطلب من ياسر عرفات كما قرأت وقتها لكن الدنيا ذهبت إلى الخراب الذي حوصر فيه، فكانت الرواية التي جعلت الصدفة في قراءتها كاتبها وكتاباته تمشي معي، فليس في الرواية هتاف وإن امتلات بأزيز القنابل. مؤكد إن ما جذب إسماعيل هو التجربة لكنه أيضا مشغول بقضايا الإنسان العربي. لقد ذهبت إلي رواياته الأخرى السابقة ثم اللاحقة وعرفت ذلك. رأيته كتب عن العراق «كانت السماء زرقاء» قبل الشياح بسنوات ليس لأنه مولود في العراق فقط، لكن لأنه يماهي بين الإنسان العربي في ورطته التي لا تزال. الإنسان العربي الذي قد يكون لبنانيا أو فلسطينيا أو مصريا أو عراقيا مع اختلاف الأرض والمفردات أو من أي وطن، فهو موجود محاصر في زنزانة أو في هزيمة «لف الحادثة 67» ويغامر مغامرة كبيرة تليق بكاتب كبير فيكتب «ثلاثية النيل يجري شمالا» في مصر وزمن مصري وصراع المماليك وثورات المصريين وهو عمل ماكان يدفعه إليه إلا رغبته في الإمساك بكل مايستطيع من هذا العالم بقدرة الفنان الواثق أن العالم في يده مهما كبر واتسع. في يده وهو في عالمه الخاص منعزل عن منغصات الحياة اليومية. وكنت أتساءل وأنا أقرأ هل عاش إسماعيل فهد إسماعيل في مصر كما عاش في لبنان بعض الوقت حين كتب «الشياح» حتى يكون لديه كل هذا الصدق والإحساس بالمكان والزمان في كل مفرداتهما وهو يكتب عن حقبة تاريخية في زمن المماليك. لا أعرف ولم أسأله أبدا لكن هو الصدق الفني. إسماعيل يقدم -وقدم- الدرس أن الكاتب لا يكتب إلا عمًّا يستقر عميقا في روحه. إنه لايكتب من أجل الكتابة ولا من أجل تراكم الأعمال. فسواء فعل الزمن ذلك أم لم يفعله فالكتابة الصادقة تبقى مهما مرَّ عليها الزمن.

ثم ياتي غزو العراق للكويت ليكتب سباعيته «إحداثيات زمن العزلة» وتأخذ الكويت المساحة الأكبر هو الذي كتب عنها من قبل روايات مثل «الطيور والأصدقاء» و«خطوة في الحلم» ولا يبدو إسماعيل بعيدا عن الحياة في الكويت رغم انشغاله ببلاد أخرى. لقد انكفأ يكتب عن وطن يستحق الحياة. وتتالى روايات إسماعيل

فهد إسماعيل «الشمس في برج الحوت «وقيد الأشياء» و«الأبابليون» و«والعصف» و«السبيليات» و«علي عهدة حنظلة» و«في حضرة العنقاء والخل الوفي» وغيرها. أكثر من عشرين رواية لإسماعيل.

في على عهدة حنظلة يستعيد إسماعيل فهد إسماعيل من العنوان الفنان الفلسطيني صاحب شخصية حنظلة في رسومه الكاريكاتورية التي لا تزال تلخص حياتنا وتشغلها كما شغلتها من قبل. مرت ثلاثون سنة على قتل ناجي العلي ويستحضره هنا إسماعيل فقد كانا صديقين في الكويت وخارجها. وبعيدا عن الصداقة فإسماعيل يمسك دائما بتجليات البشر غير المتوافقين مع ماحولهم، الباحثين عن زمن أفضل. إنه يعيد هنا حكاية المناضل الذي واجه الظلم وجيوشه بالرسم فواجهه الظلمة بالرصاص ويحيي شخصية حنظلة مع مبدعها فتتكلم مع البطل وهو على فراش الموت في الوقت الذي تتبعثر فيه في الرواية لمحات كبيرة من حياة ناجي العلي. الذي وهو في غيبوبة الموت يحيي إسماعيل ومعه حنظلة الحياة من حوله بدءا من أصدقائه إلى الصراع العربي الفلسطيني إلى الحياة في الكويت حين

كان بها ناجي العلي وظهر بها حنظلة في رسومه في نهاية الستينات وبداية السبعينات. وتستمر الروائع فتأتي «في حضرة العنقاء والخل الوفي» فندخل في عالم «البدون» في الكويت فهنا بطل الرواية الذي ينتمي لهذه الفئة يروي لابنته حياته ومعاناته باعتباره من هذه الفئة وما مرَّ به من ظلم وعسف وسجن ومعاملة من الآخرين في الحياة وإجباره علي الانضمام إلى الجيش الشعبي العراقي بعد غزو الكويت فيهرب هو البدون وينضم الي صفوف المقاومة الكويتية. وغير ذلك كثير من الأحداث المثيرة.

إسماعيل فهد إسماعيل في الأصل متخرج من المعهد العالي للفنون المسرحية ومن ثم يكتب عن مسرح سعد اللّه ونوس ويكتب عن القصة العربية في الكويت معاصرته الكاتبة الكبيرة ليلى العثمان وعن كتابات حداثية أخرى في الكويت ولا يكتفي بالإبداع. ولقد وصل مرة إلى القائمة الطويلة ثم القصيرة لجائزة البوكر وفاز بجائزة العويس الأدبية هو الجدير بكل الجوائز.

تابعت قراءة إسماعيل فهد إسماعيل ورأيته في كل رواية قرأتها يقيم لنفسه وحده جبلا من الجمال والمغامرة. استقر في روحي ريادته للكتابة الروائية ليس لأنه الأسبق في الكويت لكن لأنه يبدع منها معابد للقراء والكتَّاب أيضا بمعرفته العميقة بان الحكاية ليست مجرد انهمار للموضوعات لكنها أبنية في الفضاء من بشر وأحداث ورؤى خفية. في كتاباته هموم كبيرة بالأمة العربية والكويت في قلبها لكن في كتاباته كما قلت وكما يعرف كل ناقد أو قارئ جاد للأدب مغامرات في التشكيل والبناء والإمساك بالمثير من الموضوعات والأحداث. كما كان يفعل محمود درويش في الشعر كان هو يفعل في الرواية. محمود درويش مجدد كبير في شكل القصيدة وروحه تهفو إلى قضايا الإنسان الكبرى رغم أن حمله ثقيل بقضايا الوطن وكذلك كان يفعل إسماعيل فهد إسماعيل. آخر مرة قابلته أول هذا العام في الكويت. أهداني رواية «السبيليات» و «علي عهدة حنظلة» وانتظرت أن أراه مرة أخرى في القاهرة أو الكويت لكنه أسرع في الخروج من هذا العالم القاتل هو الذي بنى لنا عوالم حافلة بالجمال رغم أي قسوة في مفرداتها. كنت أتمنى أن أكتب هذه الكلمات في حياته. لكن هذا العالم قاتل كل يوم.

إسماعيل فهد إسماعيل وحكاية اللقاء.. في الصحراء

حين سمعت بصدور رواية (الشيّاح) لإسماعيل فهد إسماعيل، كنت في صحراء المملكة العربية السعودية، أعمل مدرِّسا، كنت شابا صغيرا، وتلك كانت أول أسفاري. من عاش هناك في تلك الفترة، يعرف ما الذي يعنيه أن تسمع بصدور كتاب تحبه، لكنك لا، ولن تستطيع الوصول إليه، فالمنطقة التي تعمل فيها بعيدة جدا عن أقرب مدينة كبيرة إليها، جدة، وهذه مدينة لا تراها سوى مرتين، حين تصل، وحين تغادر. أي في بداية السنة الدراسية وفي نهايتها. كما أن الأمر الصعب هو أن تجد رواية مثل الشيّاح، إن استطعت الوصول إلى أي مدينة مثل جدة.

بقلم: إبراهيم نصر الله *

كتبتُ إلى صديقي الروائي الراحل جمال ناجي، وكان قد عاد إلى عمان، بعد سنتين أمضاهما في المنطقة نفسها التي كنت أدرّس فيها، طالبا منه أن يُرسل إليّ الرواية، مع علمي أن وصولها يبدو مهمة مستحيلة؛ لأن رسائل أهلنا لم تكن تصلنا قبل مرور شهرين على إرسالها، فما بالك حينما يتعلق الأمر برواية عن الحرب الأهلية اللبنانية والفلسطينيين، والأطراف التي انخرطت أو أشعلت تلك الحرب.

لم أكن أعرف أن إسماعيل كان هناك، في لبنان، متطوِّعا في صفوف منظمة التحرير الفلسطينية. والحقيقة،

* كاتب فلسطيني.

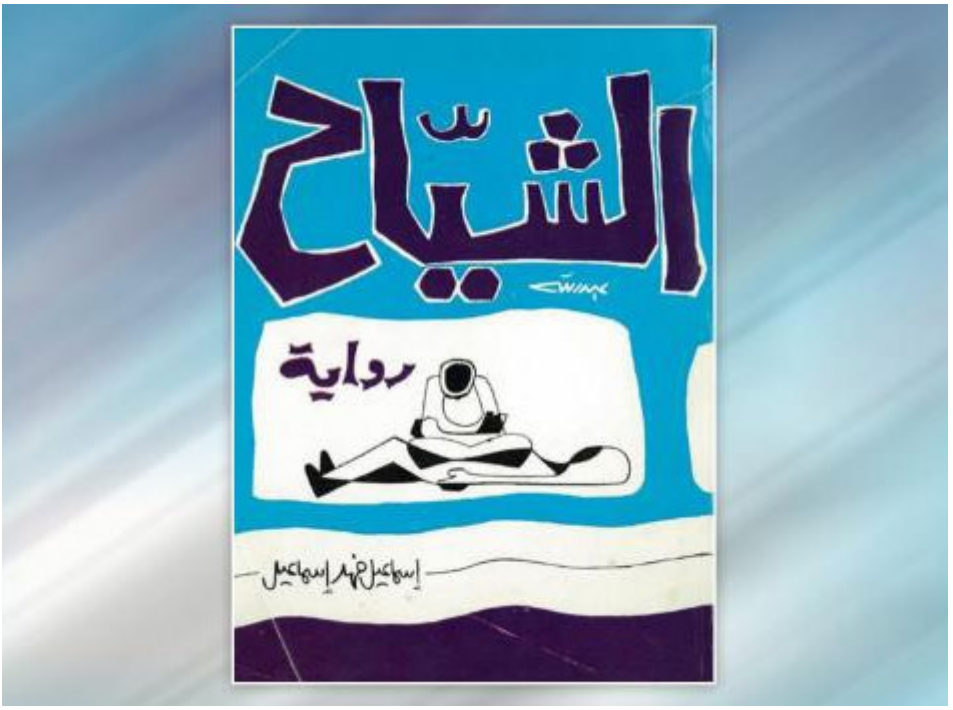

أن متابعة أخبار تلك الحرب لم تكن هيّنة، فقد كنا معزولين تماما عن الصحافة والأخبار الإذاعية، إذ لم نكن نستطيع التقاط البث نهارا، وفي بعض الأحيان كنا نستطيع التقاط حشرجاته ليلا بصعوبة بالغة، في تلك الليالي التي لم يكن يضيء عتمتها إلا الفانوس، حيث لا وجود للكهرباء.

كنت بدأت التحضير لكتابة روايتي الأولى براري الحُمَّى، ومن المفارقة الجميلة في ذلك الزمان، أنني الفلسطيني الأردني، كنت أكتب رواية عن الخليج، وهموم شعبه، وقسوة الحرب والسلِّ والملاريا في تلك الصحراء، في الوقت الذي كان فيه إسماعيل يكتب عن قسوة الحرب ومعاناة اللبنانيين والفلسطينيين في تلك السنوات السوداء!

هي مفارقة عذبة، أن يحتضن كل منا قضايا الآخر ويدافع عنها، بعيدا عن هذا الضيق الذي بات يضرب حياتنا العربية اليوم، ويتوالد فيه الأعداء من رحم الأمة الواحدة.

جمال ناجي، الراحل، الحاضر، كتب لي إهداء على الصفحة الأولى، وكأنه مؤلف الشيّاح: أخي العزيز إبراهيم نصر الله.. في غربتك. مع تحياتي وأشواقي.. جمال ناجي.

ولعل جمال، حين كتب ذلك، كان يحس بأن هذا الكتاب كتابه أيضا، وليس كتاب إسماعيل وحده، لمجرد أنه كتب الكتاب، فالقضية التي في داخله كانت قضية جمال أيضا.

كان ذلك أول لقاء لي بكتابات إسماعيل فهد إسماعيل، وقد حافظت على ذلك اللقاء دائما، بحيث أنني لم أتخلّ عن تلك النسخة التي حملتُها معي، عندما انتهت السنة الدراسية، عائدا إلى عمان، مودِّعا تلك الصحراء باستقالتي من عملي، لأنهي بعد ذلك رواية براري الحُمّى، ويُنهي جمال رواية: الطريق إلى بلحارث، وينشرها قبلي.

حين اقتربت من عالم الراحل إسماعيل فهد إسماعيل أكثر، إسماعيل الذي غادرنا هذا العام، وجدت أنه مثل ذلك الفتى العربي القديم الذي قال: أوزِّع جسمي في جسوم كثيرة. فقد كان إسماعيل يوزِّع جسمه وروحه أيضا في أوطان وقضايا كثيرة، من فلسطين، إلى العراق، إلى مصر، إلى لبنان، والكويت، وسواها..

تلك كانت صورة مختلفة للمثقف النادر الذي لا يعزل نفسه في مكان ما، مهما اتّسع ذلك المكان، وهذا النموذج كان حاضرا بقوة في السبعينيات من القرن الماضي بصورة ملفتة، حيث كنا نجد، في صفوف الثورة الفلسطينية، العراقي والمصري والسوري واللبناني والسوداني والجزائري والكويتي والسعودي..وسواهم من بقية وطننا العربي الذي كان كبيرا، أو هكذا رسمنا صورته! إضافة إلى مثقفين من أنحاء كثيرة من هذا العالم.

يعتزّ المرء بريادة إسماعيل في مجال كتابة الرواية، في الكويت، لكن الريادة ليست دائما حُكمَ قيمةٍ إن لم تكن هذه الريادة معززة بإضافات نوعية للفن الذي يقدِّم فيه الكاتب مساهماته، وقد كانت مسيرة إسماعيل حافلة بكل جديد، ويسجّل له، أنه كان صاحب عزيمة كبيرة، أتاحت له أن يقدم الكثير من الأعمال الأدبية الجميلة.

لم ألتق بإسماعيل، رغم كل ذلك الزمن الطويل، ورغم أنني نشرت أوائل قصائدي

في الكويت: (مجلة النهضة) التي كان يديرها ابن حيفا، الصحفي اللامع عبد اللّه الشّيتي، حتى قبل أن أصدر ديواني الأول، وروايتي الأولى، كما أن أول حوار صحفي كان معي، كان في صحيفة الرأي العام الكويتية، وفي ذلك الحوار، قلت، ما كان إسماعيل يُطبِّقه عمليا: نحن لا نقف مع فلسطين لأننا فلسطينيون أو عرب، ولكن لأن فلسطين امتحان يوميّ لضمير العالم.

بعد ربع قرن من ذلك الزمان، تلقيت طردا من إسماعيل، بعد سلامات متبادلة بيننا كان يحملها الأصدقاء. كان الطرد يضمّ عددا من رواياته، أما الغريب، فإن الشيّاح لم تكن من بينها، مع أن الفرصة لم تسنح لأقول له قصتها. أما الأمر الذي لا أعده مصادفة، فهو أن يختار إسماعيل هذه الرواية بالذات، بعد 42 عاما من صدورها، من بين كل أعماله، لتمثله، في زمن حروبنا الأهلية الآن، لتنشر هذا العام ضمن سلسلة كتب الفائزين بجائزة سلطان العويس!

.. وبعد ثمان وثلاثين سنة، من وصول رواية (الشيّاح) لي، في تلك الصحراء، الرواية الجميلة، ذات الإيقاع السريع، الرواية البانورامية، زرت الكويت للمرة الأولى في حياتي، عام 2016، لكن الفرصة لم تكن سانحة للقاء إسماعيل، وهكذا بقيت معلّقا بين لقاء بكتاباته مستمرٍّ، ورغبة في اللقاء به، لم تتحقق.

لا أعرف إن كان جمال ناجي، في العالم الآخر، قد أخبر إسماعيل فهد إسماعيل، بقصة إرساله لتلك الرواية لي، وذلك الإهداء الذي كتبه، كما لو أنه هو مؤلفها، ومعجزة وصول رواية في زمن لم تكن فيه الأخبار قادرة على اجتياز الأثير، لكنني آمل أن يكون قد فعل.

وبعد.. من (قصيدة قديمة):

كلّ ما أبصرتْهُ المرايا لها

لم يعدْ غير ظلّي وظلّكَ يعبرُ هذي الطُّرُقْ

ههنا نترجَّلُ في زمنينِ

فلا نلتقي صدفةً يا (صديقي) ولا نفترقْ!!

ونطيرُ غريبين عبرَ الفصولِ

ومن أُفقٍ ساكنٍ لأُفقْ

كلّ ما أبصرتْهُ المرايا تجلّى قليلاً كحُلْمٍ

ومثل الفَرَاشِ احترقْ

إسماعيل فهد إسماعيل.. أول روائي كويتي قرأت له

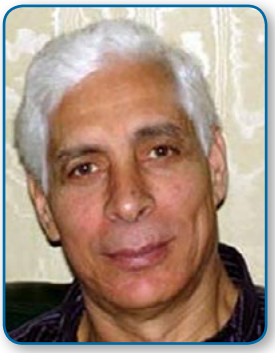

بقلم: الحبيب السالمي *

إسماعيل فهد إسماعيل هو أول روائي كويتي قرأته. لم أكن أعرف شيئا عن الأدب الكويتي عندما حدث هذا. كان ذلك في أوائل الثمانينيات وكنت لا أزال طالبا في كلية الآداب في تونس. كنت قد نشرت قصصا قصيرة وشرعت في كتابة روايتي الأولى «جبل العنز». لا أدري كيف وقعت روايته «المستنقعات الضوئية» بين يدي. عنوانها هو أول ما شد انتباهي ودفعني إلى قراءتها. بدا لي جميلا وخاصة خارجا عن المألوف ومختلفا تماما عن عناوين الروايات العربية التي قرأتها آنذاك. التهمتها في وقت قصير. أدركت أني أمام كاتب متميز قدير له لغة جميلة وحديثة وقادرة على التقاط أدق تفاصيل الحياة. وهذا ما كنت أبحث عنه آنذاك. أعجبت أيضا بعدم سقوطه في «مستنقع» البلاغة السائدة واستسلامه للإنشائية الغنائية التي كانت (ولا تزال) تثير إعجاب العديد من النقاد. وفيما بعد قرأت له روايات أخرى. روايات على قدر كبير من التميز سواء في بنياتها أو في ثيماتها. ومناخاتها لا تحيل إلى بلده الكويت فحسب وإنما إلى بلدان عربية أخرى أيضا مثل لبنان والعراق ومصر. روايات يمتزج فيها الماضي بالحاضر والسياسي بالثقافي والمحلي

بالإنساني وتطرح الأسئلة التي تؤرق العربي وتعكس همومه وهو يواجه مشكلات الهوية وعلاقتها بالحداثة. ومنذ تلك الفترة لم يتغير رأيي في إسماعيل فهد إسماعيل. والآن أعتبره واحدا من أهم كتاب الرواية في العالم العربي.

* كاتب تونسي.

كيف نقرأ إسماعيل فهد إسماعيل؟

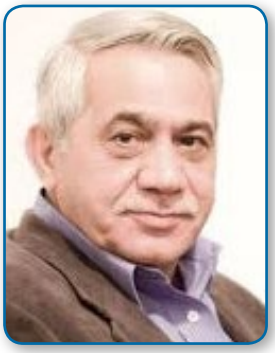

بقلم: إلياس فركوح *

تشكّل واقعة الكتابة داخل مجتمع يخلو من كُتّاب حالة مزدوجة تستوجب التأمل:

فهي من جهة تعني «الحرية» – إذ ينطلق كاتبها متخفياً من أيّ إرثٍ أدبيّ يختصّ بالمكان يُلْزمه الحَذَر والمواكبة والحذو، وبالتالي تبقى كتابته سَفَراً «مرتبكاً» بنسبة أو بأخرى، يصبو إلى الأمام ملتفتاً للوراء في الوقت نفسه! يفعلُ هذا دون وعيٍ منه أو بوعي، غير أنه غير قادر على إلغاء مرجعيته المحليّة الحاضرة في كُلٍّ من الذاكرة الشخصية ورفوف مكتبته الماثلة أمام عينيه!

لكنَّ حالة الانطلاق وسط مجتمع لا وجود فيه لمرجعية خاصة به، لا تعني «الانفلات» من المرجعيات الأخرى التي استندَ إليها الكاتب، والتي شكلت فضاءً خصباً تحركَ في مداراته متأثراً بمعطياته، ومصطفاً إلى جِوار أقرانه من كُتّاب في مجتمعات أخرى أوْسَع من مجتمعه، وذات تقاليد ليس أمراً سهلاً التعامل معها بـ«منطق» الانفلات! أو اللعب الأحادي الحُرّ على أرضٍ بلا لاعبين سِواه!

هذا هو إسماعيل فهد إسماعيل، أو هكذا أعاينه من مكاني هنا، ومنذ قراءاتي الأولى له بداية سبعينيات القرن الماضي. ففي ذاك الزمن كنتُ أظنّه عراقياً، وخاصةً في روايته الأولى «كانت السماء زرقاء» (1970)؛ لسببٍ راسخ في ذاكرتي قِوامه «الموضوعة» التي تصدّى لها بالكتابة، ذات البُعد السياسي أو ما يحيل عليه،

* كاتب أردني.

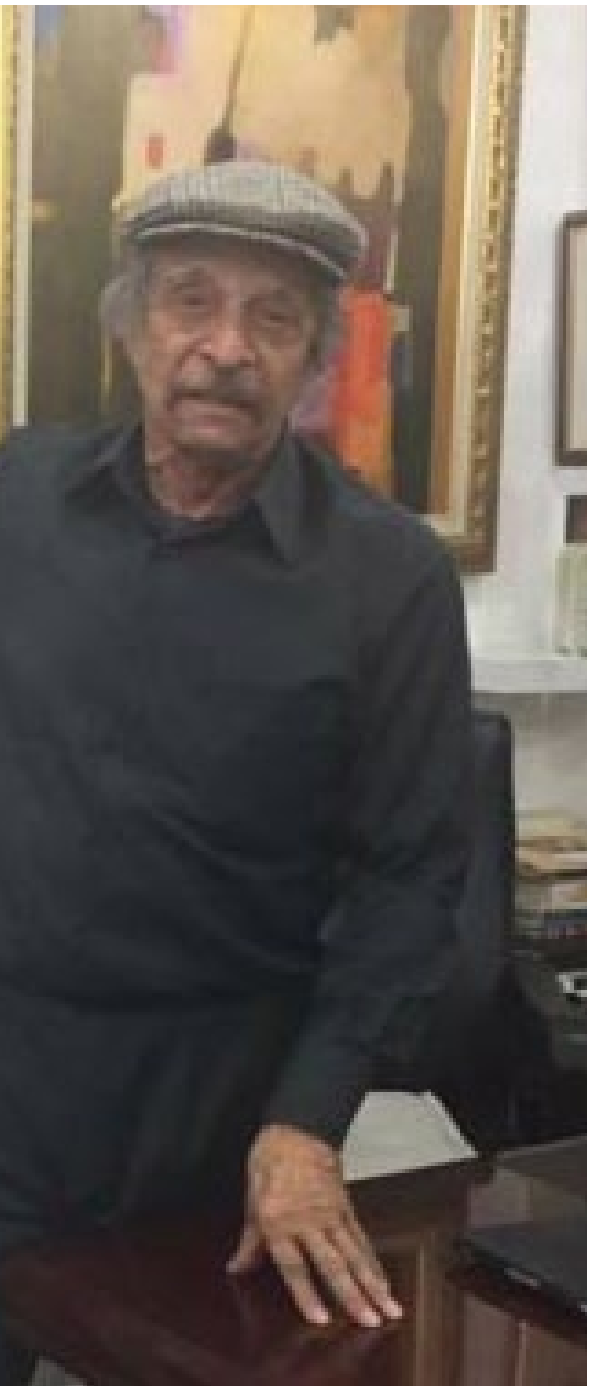

البعيد تماماً عن الواقع الكويتي آنذاك.

صحيحٌ أنّ إسماعيل فهد إسماعيل مؤسِسٌ ورائدٌ للسرد المتقدم في الكويت، وهذه نقطة تميُّز بلا أدنى شك. لكنها، في الوقت نفسه، تشكلُ في ذاتها حالةً «حَرِجَة»؛ إذ تستدعي من قارئه مقارنته مع سِواه من مجايليه العرب ونصوصهم (المرجعيات الأوسَع)، وتحديد موقعه على خريطة أكبر من خارطته الخاصّة. فهو من جهة مؤسِسٌ ورائد، ومن جهة أخرى «فِرعٌ» من شجرة ليس من الجائز، أو الممكن، قطعه ومعاينته منفرداً بنفسه معزولاً عن بقية الفروع.

كتب إسماعيل فهد إسماعيل خمسَ وعشرين رواية خلال 78 سنة من حياته (1940–2018)، ومجموعتين قصصيتين، وثلاث مسرحيات، وخمس دراسات، إلخ. أي أنه مرَّ بعدة محطّات في رحلة الكتابة المتنوعة ينبغي لكل دارسٍ معاينته من خلالها.

وإنها، في نظري، لمهمة واجبة لأنها ضرورية من أجل إنصاف كاتب عربيّ «مخضرم» سنكون قد انتفصنا من تجربته إذا حصرناه و«حاصرناه» داخل الدائرة الجغرافية لبلده، غافلين عن الخريطة الأرحب التي ينتمي إليها.

إسماعيل فهد إسماعيل.. أيموت من بضاعته المحبة؟

«سأحيا لأن ثمة أناس قليلين أحب أن أبقى معهم أطول وقت ممكن»

الطيب صالح

بقلم: حمّور زيادة *

لو استفتى أبوفهد محبتنا لما تركنا وذهب.

لكنه قرر وحده، أزعج طمأنينتنا أنه باق ما بقي حبه في قلوبنا. وفي هدوء انسحب.

عرفته لأول مرة في منتصف التسعينيات. كنت مراهقاً يكتشف الأدب تحت سماء الخرطوم الحارة. أجمع ما يتبقى من مصروفي المدرسي وأغوص في مكتبات الكتب المستعملة باحثاً عن المتعة. تعثرت برواية «كانت السماء زرقاء».

كأي مراهق أحمق كان لابد أن أضع مسلمات وقواعد خائبة لا معنى لها. أنت بلا تجارب تذكر، وليس لديك حكمة، لكن لابد أن تحاول أن تطلق أحكاماً على الحياة. قلت لصاحب المكتبة «لا يوجد كاتب ناجح له اسم شهرة ثلاثي. الكتّاب الناجحون دائماً لهم أسماء ثنائية».

نظر إليّ صاحب المكتبة في إشفاق. لقد عرف يومها كم كنت ساذجاً.

❑ ❑ ❑

* كاتب سوداني.

كانت رواية صغيرة. ويبدو ثمن استعارتها مناسباً لميزانية طالب يدخر القرش فوق القرش (وقتها كان النظام النقدي السوداني قد تغير إلى الدينار، قبل أن يعود أدراجه مرة أخرى إلى الجنيه والقرش). لكن ماذا أفعل مع اسم الكاتب الثلاثي؟

مرشدي - صاحب المكتبة، الذي عرفني على جابرييل جارثيا ماركيز وعبدالرحمن منيف وواسيني الأعرج وتشينو أتشيبي - أصر عليّ أن أقرأها. كان ملحاً حتى تخيلت أنه سيمنحنيها مجاناً. كان صريحاً. أخبرني أني أحمق. لا يمكنني أن أنفي إبداع معاوية محمد نور وعرفات محمد عبدالله ويحيى الطاهر عبدالله وغيرهم لمجرد أني قررت كمراهق أن أطلق حكماً ما في لحظة بلا معنى.

حملت الرواية مدحوراً، ومعها رواية لنجيب محفوظ (وهو اسمه المركب، فليس اسماً ثنائياً يوافق نظريتي التي تبنيتها قبل دقائق).

❑ ❑ ❑

في ديسمبر 2016 التقيته وجها لوجه. كنت أزور الكويت لأول مرة بدعوة كريمة من جائزة الملتقى للقصة القصيرة. وفي دعوة غداء بمنزل الأديب طالب الرفاعي وجدتني أمام الرجل بسمته الهادئ والكاب الذي يميزه.

كان فيه شيء مألوف كأب طوته الغربة دهراً ثم عاد للديار.

يتحرك ببطء، لا يشكو، لكنك تلمح أثر المرض عليه. جلست إلى جانبه على أريكة وتحدثنا كأننا نواصل حكايات تركناها سابقاً في المنتصف دون أن نكملها. الآن كحميمين نواصل ما تركناه منقطعاً. حكيت له قصتي مع رواية «كانت السماء زرقاء»، ابتسم وحكى لي عن روايتي «الكونج».

كان صديقي سعود السنعوسي قد أرسل لي قبلها بشهور صورة لإسماعيل فهد يحمل روايتي «الكونج». نشرتها فوراً بفخر على صفحتي بفيس بوك، ثم رجعت أسأل سعود عن مناسبتها.

❑ ❑ ❑

سأظلم الرواية كثيراً لو وصفتها فقط أنها فتنتني. ربما بسببها قرر ذلك المراهق الأحمق الذي كنته أن يقتل إلى الأبد نظريته البلهاء عن «الأسماء الثلاثية».

لم تكن مجرد رواية فاتنة، إنما كانت فتحاً. كأنما أكتشف الأدب للمرة الأولى.

عدت إلى المكتبة عطشاً لرواية أخرى. قيل لي أن له رواية أخرى اسمها «الحبل»، لكنها غير موجودة. استعارها أحدهم. فاستعرت «كانت السماء زرقاء» مرة أخرى.

لم أقرأ «الحبل» إلا بعد سنوات. و«النيل يجري شمالاً».

لكنه ظل دائماً بالنسبة لي الساحر الذي فجّر « كانت السماء زرقاء». لم تكن مجرد رواية، لكنها كانت عالماً لم أعرفه من قبل.

❑ ❑ ❑

كان صوته خافتاً، كموسيقى هادئة في معرض لوحات. لا يتكلم بلهجة حاسمة. يقول رأيه كأنه يتساءل. كنت في البداية أقع في الفخ وأجيبه بنعم. ثم فطنت انه لا يسأل، لكنه رجل متواضع ينطق الحكمة الصافية.

❑ ❑ ❑

النميمة هي مقبلات جلسات الكتّاب. وكلما كانت الجلسة خاصة كلما كانت النميمة أكثر تخففاً وعرياً.

أعترف أني جلست في مجالس نميمة كثيرة. ورأيتها عارية أكثر مما يحصي عقلي. لكن ما مرت سيرة إسماعيل فهد إسماعيل إلا مكللة بالمحبة ومزدانة بالمدح المخلص.

كل من عرفه أحبه. وكل من مدحه شدد على أنه كان الداعم الدائم لكل كاتب جديد. كان يفرح بالكتّاب الصغار كأنه يكتبهم!

سألت سعود السنعوسي عن الصورة التي أرسلها لي. لماذا فجأة من لا مكان صورة لإسماعيل فهد يحمل روايتي الأولى؟

عرفت أنه طالعها وأثنى عليها. ثم أحب هو وسعود أن يبهجاني بالصورة، ففعلاً.

ويوم التقيته بعدها بأحد عشر شهراً في ضيافة الأديب طالب الرفاعي حدثني عنها حديث المعجب وأنا مذبذب بين التيه فخراً والموت خجلاً.

❑ ❑ ❑

ظللت لشهور أنتظر عودة رواية «الحبل» إلى مكتبة الاستعارة، لكن من اقتنصها ضن بها على غيره، فذهب بها إلى غير رجعة.

فيما بعد سأجدها في سور الأزبكية بالقاهرة، وأشتريها بلا فصال. ثم أعثر

على الجزء الثاني من «النيل يجري شمالاً» في منزل أحد أقاربي فتتلبسني روح الفرزدق. كان همام بن غالب إذا أعجبه بيت من الشعر لشاعر ناشئ ذهب إليه وقال له «أنا أولى بهذا البيت منك». ثم ينشده في قصيدة له غير هياب. قلت لأقاربي وأنا أحمل الرواية «أنا أولى بها منكم». فمنحونيها عن طيب خاطر.

❑ ❑ ❑

لو كانت المحبة تحيي لما جرؤ الموت أن يمس أبوفهد.

لأن المحبة خلود فإن الموت لن يغيب أبو فهد.

ربما ظلم الإنسان العظيم الذي كأنه الكاتب العبقري.

يوم نُعي إلينا كان النائحون يبكون أباً رحل عنهم. روحاً حلوة نقصت من الحياة. كان حضوره عبقرياً ككتابته. لذلك أوجعنا ذهابه وكتاباته خالدة.

سنفتقده مع بقاء السبيليات والعصف والأبابيليون ودوائر الاستحالة. ستظل عبقريته الأدبية خالدة بيننا. لكنّا سنفتقد حضوره العبقري، تواضعه الخلاب، أدبه الجم، وملامح الأب الذي طوته الغربة دهراً ثم عاد للديار.

في وداع
إسماعيل فهد إسماعيل (١٩٤٠ - ٢٠١٨ م)
رائد الرواية في الكويت

بقلم: خالد سالم الأنصاري *

برحيل أديب كبير أو شاعرٍ مبدع أو فنانٍ مرهف، بمثابة شرخ عميق في هرم الثقافة. فمثل هؤلاء المبدعين قَلَّ أن يجود الزمان بمثلهم إلا بمرور عقود طويلة؛ ولكن عزاءنا فيما تركوا من أعمال إبداعية خالدة لا تنتهي بانتهاء مسيرة حياتهم، بل تظل شاهدة تروي للأجيال عبر الأجيال ما أبدع كُلّ في مجاله وتألق فيه وتربع على عرشه.

ومن هؤلاء أستاذ القصة والرواية الأديب الراحل إسماعيل فهد إسماعيل عليه رحمة الله ورضوانه.

كان الفقيد نجم التجمعات والأمسيات الثقافية أين ما توجه وعَرّاب شبابها ومثقفيها. احتضن المبدعين الجُدد وأخذ بيدهم وشجعهم ووجههم الوجهة الأدبية الصحيحة لعالم القصة والرواية. فقد كان هذا ديدنه منذ السبعينيات من القرن الماضي في تشجيع ورعاية الكُتاب الناشئين واحتضانه لهم، فهو الشجرة التي يستظل بها المبدعون في الكويت كما قال عنه الروائي طالب

* باحث كويتي.

الرفاعي، وأبو الرواية في الكويت كما قال عنه آخرون.

له طريقته المتميزة في صياغة الجُمل وتركيب التعابير وسردها بأسلوب متميز ومدهش.

تمتاز معظم أعماله بتناول المعاناة الإنسانية والنفسية للمضطهدين والمهمشين داخل المجتمع.

عرفته منذ ثمانينيات القرن الماضي، وتابعت بعض أعماله الروائية قبل ذلك، فشدّني أسلوبه في الكتابة وطرحه غير المألوف لدى كُتاب القصة والرواية خلال تلك الفترة، وبعد ذلك أصبحت تجمعنا لقاءات وجلسات في أمسيات رابطة الأدباء.

حياته العملية والأدبية

حاصل على بكالوريوس أدب ونقد من المعهد العالي للفنون المسرحية في دولة الكويت. عمل في مجال التدريس لفترة، ثم موجهاً فنياً في إدارة النشاط المدرسي وإدارة الوسائل التعليمية.

رائد الرواية الكويتية دون منازع وأحد أعلامها البارزين في الكويت والعالم العربي. اتصف بالدماثة والتواضع وحُسن الخلق.

«كانت السماء زرقاء»

كانت روايته الثانية «كانت السماء زرقاء» والتي صدرت عام ١٩٧٠م نقلة كبيرة في كتاباته، وحازت على إعجاب الناقدين والقراء، وتخطت شهرتها حدود وطنه الكويت. فكتب عنها الأستاذ الكبير صلاح عبدالصبور وقدّم لها قائلاً: «كانت الرواية مفاجأة كبيرة لي، فهذه الرواية جديدة كما أتصور رواية القرن العشرين قادمة من أقصى المشرق العربي حيث لا تقاليد لفن الرواية حيث مازالت الحياة تحتفظ للشعر بأكبر مكان. ولم يكن سِر دهشتي هو ذلك فحسب، بل لعل ذلك لم يدهشني إلا بعد أن أدهشتني الرواية ذاتها ببنائها الفني المعاصر المحكم. وبمقدار اللوعة والحب والعنف والفكر المتغلغل في ثناياها.

أعماله

له الكثير من القصص والروايات والأعمال المسرحية.. ما بين قصة ورواية ومسرح وسِير ذاتية ونقد وعمل درامي منذ عام ١٩٦٥ وحتى آخر عمل له قبيل وفاته وهي:

١ – البقعة الداكنة – قصص ١٩٦٥م.

٢ – كانت السماء زرقاء – رواية ١٩٧٠م.

٣ – الحبل – رواية ١٩٧٢م.

٤ – الضفاف الأخرى – رواية ١٩٧٢م.

٥ – الأقفاص واللغة المشتركة – قصص ١٩٧٤م.

٦ – ملف الحادثة ٦٧ – رواية ١٩٧٥م.

٧ – الطيور والأصدقاء – رواية ١٩٧٢م.

٨ – خطوة في الحلم – رواية ١٩٨٢م.

٩ – الشيّاح – رواية ١٩٧٦م.

١٠ – النيل يجري شمالاً – البدايات – رواية ١٩٨٢م.

١١ – النيل يجري شمالاً – النواطير – رواية ١٩٨٣م.

١٢ – النيل الطعم والرائحة – رواية ١٩٨٩م.

١٣ – إحداثيات زمن العزلة – رواية طويلة من سبعة أجزاء، ترصد وتوثق أحداث الاحتلال العراقي من الغزو إلى التحرير.

١٤ – الكائن الظل – رواية ١٩٩٩م.

١٥ – سماء نائية – رواية ٢٠٠٠م.

١٦ – ما لا يراه النائم – مجموعة قصصية ٢٠٠٩م.

١٧ – في حضرة العنقاء والخل الوفي – رواية ٢٠١٢م.

١٨ – عندما رأسك في طريق واسمك في طريق آخر – ٢٠١١م.

١٩ – القصة العربية في الكويت – دراسة ١٩٧٧م.

٢٠ – للحديث بقية ابن زيدون – مسرحية ٢٠٠٨م.

٢١ – الظهور الثاني لابن لعبون – ٢٠١٥م.

٢٢ – السبيليات – رواية ٢٠١٥م.

٢٣ – مبدعون مغايرون – ٢٠٠٦م.

٢٤ – طيور التاجي – رواية.

٢٥ – مسك – رواية.

٢٦ – صندوق أسود آخر في الكويت.

الجوائز التي حصل عليها

١ - جائزة الدولة التشجيعية، في مجال الرواية عن كتابه النيل الطعم والرائحة ١٩٨٩م.

٢ - جائزة الدولة التشجيعية - في مجال الدراسات اللغوية والنقدية عام ٢٠٠٢م عن كتابه: علي السبتي شاعر في الهواء الطلق.

٣ - جائزة الدولة التقديرية - عام ٢٠٠٤م.

وفاته

يشاء القدر أن يوافيه أجله بعد يومين من حضوره ندوة لمناقشة آخر رواية له وهي: صندوق أسود آخر في الكويت، وذلك في ٢٥ سبتمبر ٢٠١٨م. وبذلك فقدت الكويت والحركة الأدبية علماً مهماً من أعلام الأدب والثقافة.

إسماعيل فهد إسماعيل.. الكلمة والفعل

تكثر مداخل القول عندك حينما تتحدث عن الذين لهم في نفسك وعقلك تقدير كبير، وإسماعيل فهد إسماعيل واحد من هؤلاء؛ يجمعني معه جيل واحد كان مشغولا بحفر أساس البدايات، وإنضاج تجربتها، وانفتاحها على كل جديد.

بقلم: د. سليمان الشطي *

أخذ إسماعيل فهد إسماعيل موقعه في المقدمة، هو رائد، مجرب، نظرة متسعة الأفق، إنسانية، حضور دائم حفر بعمق وأصالة المجرى الرئيسي للرواية في الكويت، وكانت هذه الريادة بحد ذاتها تكفي وتزيد ليصبح اسمه علما من الأعلام. ولكن هذه الريادة جاءت متسلحة بوعي متقدم في فن الرواية، فقد لامس أحدث التجارب الروائية في الساحة العربية، فجاءت روايته الأولى (كانت السماء زرقاء) لتقف بجوار رواية غسان كنفاني (ماذا تبقى لكم) تجربتان متميزتان في إبراز شكل التداعي في الرواية الحديثة، وجاءت رواياته التالية لتكمل مسار التجارب، هو إذن رائد مجرب.

وهو أيضا صاحب نظرة فاحصة للمجتمع من حوله، يتجاوز ما هو ظاهر في الصورة لينفذ إلى المسكوت عنه، ويغوص في دروب الفئات المقصية من المجتمع وينبش مبرزا معاناتها في أقفاصها، مفككا لغتها المشتركة.

* كاتب كويتي.

وهو أيضا صاحب نظرة متسعة، فتجربته تتجاوز التمترس عند المجاور له، ولكنه يتجاوزها إلى ما هو أشمل، إلى الأمة في شمول معناها وامتدادها، فكما كتب عن العراق مد مساحة كلماته إلى حيث يكون النبض مشتعلا، فكتب عن لبنان وعن مصر، فكان روائيا عربيا حقا.

ويأتي دور إسماعيل فهد إسماعيل المبادر، والمبادرة هنا خطوة تحاول سد أي نقص أو تلبية حاجة ثقافية ملحة، ولما كان فن القصة فنا جديدا، وتاريخه لا يزال في حاجة إلى أن تُلْقى عليه أضواء كاشفة، فثمة نقص في الرؤية التاريخية لهذا الفن، لذا بادر مبكرا في منتصف السبعينيات ليكتب كتاب (القصة في الكويت).

ويبقى بعد ذلك قول كثير عنه، ألم يختر (الفعل) عنوانا لدراسته عن المسرح!؟ فهو الفعل ونقيضه عند سوفوكليس، وهو أيضا: الكلمة والفعل عن سعد الله ونوس.

لقد كان (الفعل) هو ديدن إسماعيل الذي لا يتوانى، لكل هذا نقول:

هذ هو إسماعيل فهد إسماعيل رائد، مجرب، نظرة متسعة الأفق، إنسانية، حضور دائم، مبادر، ثاقب النظرة.

لذا سيبقى اسمه حاضرا مشعا حينما نؤرخ للأدب في الكويت.

شهادة الشاعر صلاح عبدالصبور

رواية «كانت السماء زرقاء» رواية القرن العشرين[1]

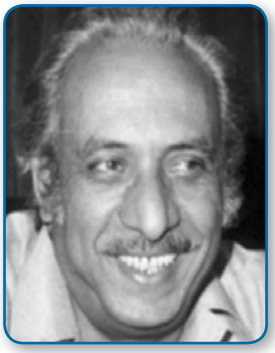

بقلم: صلاح عبدالصبور *

كتبت منذ سنوات عشر مقالات بعنوان «البحث عن القرن العشرين» وكان دافعي إلى كتابته قراءتي آنئذ لنعي الروائي الفرنسي «بيير بنوا» في الصحف الفرنسية، واستطراد الصحيفة الناعية في ذلك الوقت، وأظنها «الليترفرانسيز» إلى الإشارة إلى أن نجمين قد ظهرا في فن الرواية في وقت واحد تقريباً في فرنسا، أما أولهما فهو «مارسيل بروست» صاحب رواية «البحث عن الزمن الضائع» وثانيهما «بيير بنوا» صاحب رواية «الاطلنطيد» وقد تُرجمت هذه الرواية إلى العربية منذ خمسة وعشرين عاماً تقريباً.

أما أولهما «بروست» فقد عاش ومات ولم يكد يفطن إليه إلا القليل من القراء، بينما حظي «بيير بنوا» في مطالع حياته بالمجد الباذخ. ولكن كل يوم مضى بعد بزوغ النجمين كان يضيف إلى «بروست» قارئاً جديداً، ويسلب من «بيير بنوا» لقاء ذلك قارئاً كان يحبه ويعرفه.

وأذكر أنني كتبت عندئذ.. إن قصة الاطلنطيد قصة خيالية، إحدى قصص الحب والهوى الجارف، التي يذهب فيها الخيال إلى أوسع مداه.

تدور أحداثها في أرض لا يعرفها

(1) كتب هذه الشهادة في شهر مايو 1970م.

* شاعر مصري.

البشر، مكتوبة بأسلوب أنيق ساحر، ولكنه في الوقت ذاته بسيط، وليست لها جذور ممدودة في المجتمع لأن قارة الاطلنطيد مكان ساحر مهجور من العالم.

وهي رواية تخضع للأسس التقليدية لبناء القصة. الشخصيات، والحبكة، ثم الحل، وتصف الأشخاص من ظاهرهم وصفا جميلاً جذاباً.

ولكن.. من قال أن الرواية أصبحت الآن تخضع للأسس التقليدية؟

إن رواية القرن العشرين تختلف عن رواية القرن التاسع عشر اختلافاً بيناً في بنائها الفني، وفي تناولها الروائي على حد سواء.

نعم.. إن شقة الخلاف الواسعة بين الرواية التقليدية والرواية المعاصرة، رغم أننا في أدبنا العربي لا

نستطيع حتى الآن أن نقول أن لنا طموحاً إلى تجاوز الآفاق التقليدية إلى آفاق جديدة، فما زال معظم أدبنا الروائي ينبع من منطق «الحدوتة» وهو في سبيل ذلك يعني بوصف ظاهر الأشخاص.. ملامحهم وسيماهم، ويهتم بما يجري فوق سطح جبل الجليد لا بما يعتمل في أعماقه الراسخة في قاع البحر.

ومنذ عشر سنوات كان الأمر أوضح. لكني في الأعوام الأخيرة أسجل بضعة ظواهر لعل أولها التحول الكبير في منهج الروائي العظيم نجيب محفوظ. وثانيهما قراءتي لثلاثة أعمال روائية جديدة أود أن أشير إليها كإشارات إلى أدب القرن العشرين. وثالثهما ما يعتمل في صدور الروائيين والقصاصين الجدد من أزمات يعبرون عنها أحيانا بالإبداع وأحيانا أخرى بالسخط والجدل العنيف.

أما الأعمال الثلاثة التي أشرت إليها فهي رواية «رجال في الشمس» لغسان كنفاني، و«سداسية الأيام الستة» لإميل حبيبي، ثم هذه الرواية الصغيرة الجديدة لإسماعيل فهد إسماعيل.

وإسماعيل فهد إسماعيل قد يبدو اسماً جديدا على كثير من القراء العرب، وقد كان جديداً بالنسبة لي حتى لقيته. إذ زارني قادما من الكويت إلى القاهرة في عمل يتصل بالتربية والتعليم اللذين يمارسهما، وقضينا ساعة نثرثر، ثم دفع إلي بعملين من أعماله. مجموعة قصصية، ورواية لأقرأهما، وأحدثه عن رأيي فيهما.

وكانت الرواية مفاجأة كبيرة لي. فهذه رواية جديدة كما أتصور. رواية القرن العشرين. قادمة من أقصى المشرق العربي، حيث لا تقاليد لفن الرواية، وحيث ما زالت الحياة تحتفظ للشعر بأكبر مكان. ولم يكن

سر دهشتي هو ذلك فحسب، بل لعل ذلك لم يدهشني إلا بعد أن أدهشتني الرواية ذاتها ببنائها الفني المعاصر المحكم، وبمقدار اللوعة والحب والعنف والقسوة والفكر المتغلغل كله في ثناياها.

إن الرواية الحديثة بناء فني عسير. فقد تكون الرواية التقليدية واضحة الحدود سهلة المعالم. فما على الروائي إلا أن يبدأ بتقديم شخصياته، ثم يتأزم بينها موقف من المواقف، لكي ينحل بعد ذلك حلاً ينبع من باطن الرواية.

أما الرواية الحديثة فهي مغامرة دائمة، واكتشاف متجدد، وبحث لا ينقطع عن المنهج والأسلوب. إن الشخصية لا تولد ناضجة، ولكنها تولد في كل لحظة، وتتكشف عن مدار صفحات الرواية، وتتصارع مع باطنها، لتزداد غنى تضيفه على العمل الفني.

ورواية «كانت السماء زرقاء» لإسماعيل فهد إسماعيل رواية مفصلة ونافذة الأثر في الوقت ذاته.

أنهما رحلتان يخوضهما البطل نحو عمق الحياة. رحلتان مشوبتان بالمعاناة والتوسخ والعذاب. ولكنهما رحلتان ضروريتان. فالبطل هارب، لا يدري أيهرب من قدره أو من الطين الذي ساخت فيه قدماه منذ أن وطأتا أرض الحياة.

وهو هارب إلى الفراغ المجهول. وهو ليس بطلاً رومانتيكيا يحمل أحلاماً، ويبشر بالخير والمحبة ويتمتع بهذا الخداع الذي يدلس به البعض على نفوسهم حين يزعمون أن العالم يحتويهم لأنهم ملائكة في هيئة بشر، وشموع منيرة تحرق نفسها لتضيء للآخرين. بل أن لهذا البطل انحداراته المسنة، أو على الأصح انحداراته الإنسانية، وربما كان الصراع الذي يدور في باطنه هو صراع بين نفسه ونفسه.. بين النفس الغارقة في حمأة التجربة والنفس المتطلعة للبراءة.. بين النفس المثقلة بالأغلال بمجرد أن وطأت الأرض، وبين النفس الطامحة إلى الحرية الأثيرية، ولكن البطل يعلم من خلال هذه الرحلة أن عليه أن يلامس الأرض، وأن يخرج من زحمة الفوضى نظاماً، ومن كثيف الظلام بصيصاً من نور.

يحمل بطلنا ماضيه كما يحمل زميله الهارب.. أحد الجلادين والضحايا في الوقت ذاته.. صرعى الانقلابات المقنعة بالشعارات الثورية التي اجتاحت بعض أجزاء وطننا العربي.. قاتل ومقتول. إنه يخوض رحلة الهرب هو الآخر، ولكن الرصاصة تستقر في مؤخرته فتقعده ليعاني سكرات الموت بعد أن أذاقها للآخرين. وهو مثل ماضي البطل تماماً.. ملوث يطمح إلى النظافة. خادع ومخدوع. الدم يلوث كلا منهما. أما هذا الهارب فهو

ملوث بدم المجتمع، بينما تلوث بطلنا بدم البراءة ذاتها.

من الصعب حقاً أن نلخص كثيراً من الأعمال الفنية، وبخاصة إذا كانت قد اجتازت رحلة التقليدية إلى مرحلة المعاصرة. وفي روايتنا هذه نستحكم الصعوبة، فالخطان أو الحبلان مفتولان بحذق وإحكام بنفس درجة الحذق والإحكام التي نجدها في الانتقالات بين الماضي والحاضر.. بين ما يعيشه البطل في حياته ما يعيشه في تذكاراته. هذه النقلات التي تخضع للإبهام كما تخضع للتصميم والتي تستوقفنا في أدب فرجينيا وولف ووليم فولكنر.

إن الذكرى هي البعد الرابع الذي أضافه القرن العشرين إلى الرواية. فلقد كانت هناك ثلاثة أبعاد للرواية. أولهما الزمن الذي تدور فيه. وثانيهما أحساس الرواية بالمجتمع والتاريخ، وثالثهما الرؤية الواسعة المستعرضة التي تتناول نماذج عدة من الأشخاص. ونستطيع أن نجد شواهد ذلك على الترتيب في أعمال تولستوي وديكنز وبلزاك.

أما البعد الرابع وهو الذكرى.. هو العودة بعمق إلى ماضي الشخصيات أو ما طوته من صفحات حياتها في أعماق ضميرها، وظنت أن النسيان قد سحب عليه ذيله. فإذا به يبعث أثر موقف ما أو حادثة ما، ويعود إلى ذهن البطل ووجدانه بكل قوته وعرامته. هذا البعد هو الذي اكتسبته الرواية من كشوف علم النفس، ومن قوانين التداعي. ولكنه ليس كسبا سهلاً مباحاً، بل لعله من أصعب الأمور أن يحكم الكاتب منطق التداعي.

وفي رواية «كانت السماء زرقاء» يتبدى اقتدار الكاتب الذي يوشك أن يكون عفوياً على استغلال منطق التداعي، وعلى جدل حبلي الماضي والحاضر في حبل واحد. وأخيراً فإن هذه الرواية من أهم الروايات التي صدرت في أدبنا العربي حتى الآن.

وهي لن تمتع القارئ المتعجل كثيراً، ولكنها بلا شك ستزعج القارئ المخلص الرصين وتدفعه إلى التفكير، بل وتصبح ثقلاً على ضميره، يظل هذا الثقل حتى يستطيع شرقنا العربي أن يتجاوز آفاقه المعتمة إلى آفاق أكثر نوراً وإشراقاً وحرية ونظافة.

إن الكاتب الذي يكتب ليمتع الناس عليه الآن أن يكتب ليهزهم ويزعجهم.

لقد تعودنا أن يكتب الكاتب للناس، ثم حاول بعض الكتّاب أن يكتبوا مع الناس. فلنجرب الآن أن نكتب ضدهم. وهذه الرواية هي إحدى علائم التحول الكبيرة الواضحة.

إسماعيل فهد إسماعيل..
«نخلة عطاء دائم»

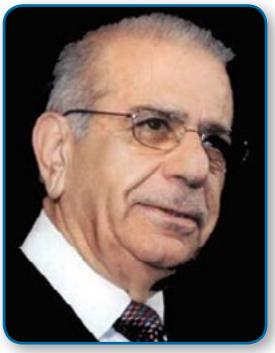

أصعب ما عليّ أن أكتب عن مبدع صديق رحل عنا جسداً، مع كل إيماني بأنه بقي حياً معنا من خلال ما تركه لنا من إبداعات لا تنسى..

بقلم: عبدالإله عبدالقادر*

إسماعيل فهد إسماعيل العربي الكويتي العراقي، هل من تسميات أخرى لهذا المبدع، الذي أجده مثل نخلة معمرة إلا أن رطبها لا ينقطع.

وإسماعيل ليس من البصرة فحسب، بل من بقعة خصبة معروفة بخصبها وما أنتجته من مبدعين، لعليّ هنا أشير إلى بدر شاكر السيّاب الذي هو الآخر وُلد في بساتين أبي الخصيب في جنوب البصرة، وهنا أشير أيضاً إلى طيبة أهل هذه البقعة.. فكلما نسافر مع شط العرب حتى مصبه في الفاو، تزداد طيبة الناس، ولا عجب أن نكتشف هذه الطيبة في رائحة إسماعيل

* كاتب عراقي.

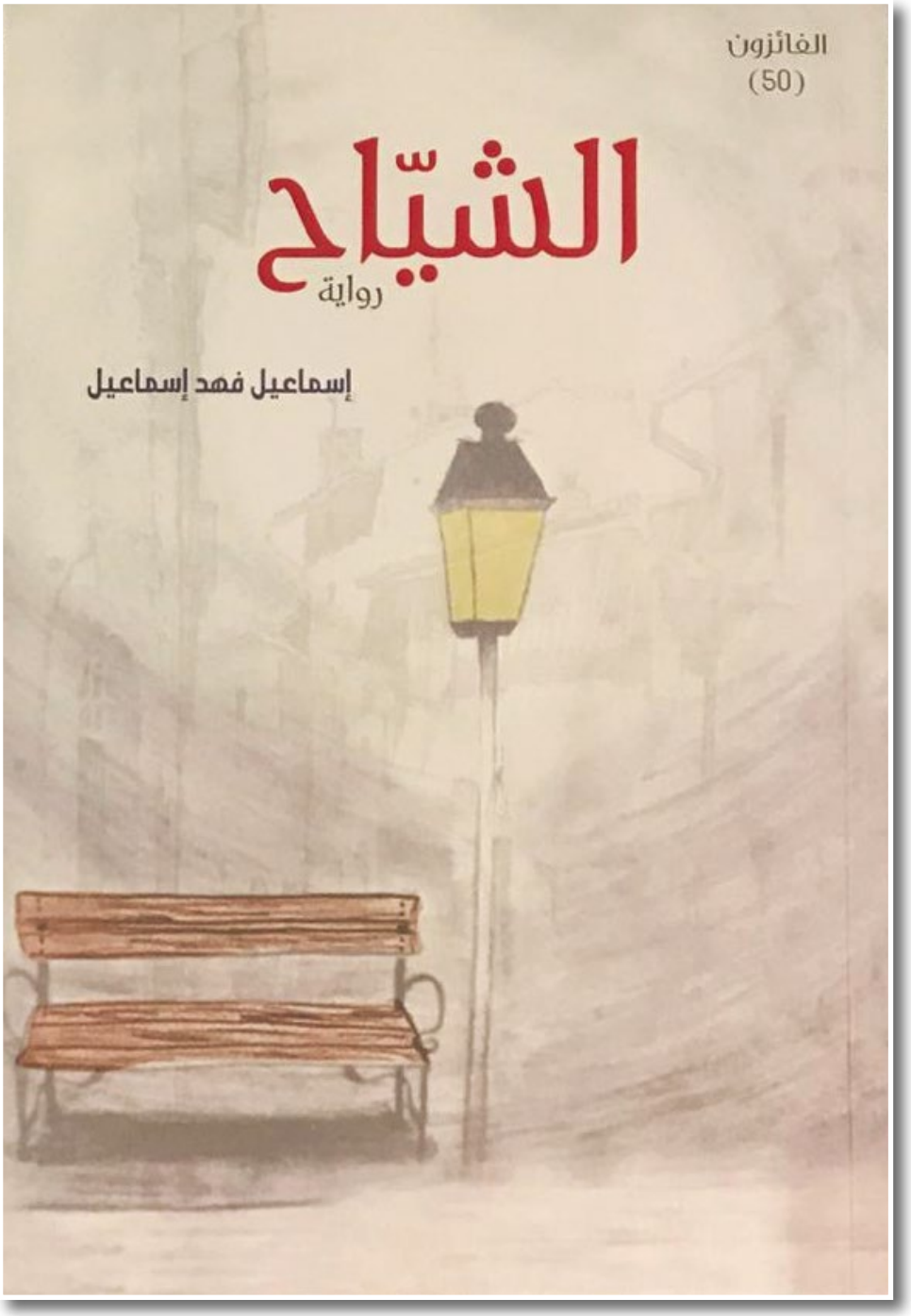
الفائزون
(50)
الشيّاح
رواية
إسماعيل فهد إسماعيل

وأخلاقه وهدوئه، وهو المملوء بكل ما في الإنسان من أحاسيس وعواطف وأعصاب.

سيرته لم تكن خافية على أحد، بل ظهرت في أعماله ورواياته وهو يقدم لنا أنماطاً إنسانية بسيطة في مجملها، ومهمشة في معظمها، ومأساوية في حياتها، بل عبثية كما هو الواقع الذي عاشته، فهي شخصيات تعاني من الغربة والاغتراب في عالم متناقض لا يدعو إلا إلى الإحباط والعجز، الانسحاق والهروب من السلطة الديكتاتورية، والاعتقال وما يجره من تعذيب وافتقار إلى روح العدالة، بل العدالة ذاتها ظهرت في رواياته التي كانت تصور الفترة العراقية في حياته أمثال ما يحدث اليوم، المستنقعات الضوئية، وغيرها.

كذلك لم ينس فترة الاعتقالات في عهد عبد الكريم قاسم، التي تجسدت في السجين كاظم عبيد كما في روايته «الحبل».

القضية الفلسطينية وواقع اللاجئين الفلسطينيين والمخيمات، برزت في روايته «ملف الحادثة 67».

تداعيات الحرب الأهلية اللبنانية وما نتج عنها من تشوهات في الحياة اللبنانية العامة، برزت بشكل واضح في رواية «الشياح».

التناقضات في المجتمع الكويتي وأزمة العمالة الآسيوية، ظهرت في رواياته المختلفة مثل «بعيداً عن هنا».

أما مصر، فقد اختار لها الفترة المملوكية إبان الحملة الفرنسية، وهو ما تجلى في ثلاثية «النيل يجري شمالاً»، وغيرها..

إذن، فرحيل هذه القامة العملاقة في الرواية العربية خسارة.. والخسارة تكمن في أننا لن نقرأ جديداً له، إنما عزاؤنا أن أعماله ورواياته حية بيننا، وسنكتشف بين الحين والآخر ما حققه هذا الروائي الخليجي، الذي سجل اسمه بين الروائيين العرب الكبار عن جدارة وإبداع، وستظل أجيال بعد أجيال تقرأ لإسماعيل فهد إسماعيل، وتكتشف به الجديد في الرواية التي

من الثابت أنها ستظل حية عبر سنوات طويلة، فنصوصه الروائية متفتحة على آليات متعددة في أسلوبه وسرده وإيقاعه، وتتعدى إلى بعض الفنون البصرية وبنية السيناريو ولغة مكثفة تعتمد على الاختزال اللغوي في بنية الجملة والتصوير الفانتازي، ولعل تلك الأجيال تكتشف المزيد مما استطعنا نحن أصدقاؤه وقراء رواياته اكتشافها والتعرف عليها.

لم يستطع الحضور إلى دبي لاستلام جائزته بعد أن فاز بجائزة سلطان بن علي العويس الثقافية في حقل الرواية لأسباب صحية، وولّد فراغاً كبيراً بين الفائزين إذ ظهرت قامته التي غابت عن الأعين، وعاشت في القلوب بل برز إنجازه الروائي الذي لم يتحدد في جغرافية واحدة، إنما تعددت أحداث رواياته ما بين البصرة والعراق وإيران والكويت ولبنان ومصر، بل ما بين السجون والمخيمات والمصانع والفلاحين، وكل ذلك ارتبط داخل النسيج الروائي، مركزاً على الاغتراب والغربة والاضطهاد السياسي والظلم الاجتماعي والهروب القسري، وكل هذا لم يضطره لترك فنية السرد، إنه مبدع في زمن صعب الإبداع فيه، مثلما صعبت الحياة وتشعبت وسائل اضطهاد البشر، وزادت قسوة الظروف السياسية والاقتصادية والحياتية، والتي عانى منها إسماعيل مثل غيره من أبناء جيله، الذين قدر لهم أن يعيشوا في زمن ومكان ما عاش به الروائي أو حتى هذا الوطن الكبير الذي يمتد من الماء إلى الماء، إلا أنه ظل ضيقاً لإنسان يحلم بالحرية والحياة.

صديقي إسماعيل فهد إسماعيل وابن مدينتي الذي فقدته، بل أخي الذي سأحن إليه كثيراً والاستماع له عبر الهاتف وسيلتنا للحديث، بعد أن تقطعت بنا السبل الأخرى، سأظل أذكره روائياً عربياً جاداً ومكثراً، حاول أن ينوع في عطائه بين الواقع والأفكار المجردة والفلسفة.. والخلاصة أن أعماله جديرة بالدراسة المعمقة والتحليل الجاد في إطار بعد نقدي حديث.

إسماعيل فهد إسماعيل .. نصف قرن من التجريب والمغامرة

بقلم: عبدالكريم المقداد *

رحل عن عالمنا في الخامس والعشرين من سبتمبر الفائت رائد الرواية الكويتية إسماعيل فهد إسماعيل (1940 – 2018)، الذي يعتبر مؤسسها الحقيقي من خلال الانتقال بها من مجرد حكاية إلى أفق الرواية كفن متكامل تشكّل الحكاية عنصرا من عناصره ليس إلا. والأكثر أنه تمكّن ومنذ أوائل سبعينيات القرن العشرين من أن يحجز مكانا في صدارة المشهد الروائي لا في الكويت فقط، بل في الوطن العربي ككل، فقد تجاوز الهامش منذ البداية، ووقف في خانة الند مع الروائيين العرب البارزين، ولكن ما الذي أكسبه هذه المكانة وأعطاه ذلك الحضور؟

لقد كان إسماعيل الفهد على مدار نحو نصف قرن الأخلص للرواية والأغزر إنتاجا وتجريباً، إذ ترك نحو خمس وثلاثين رواية وعدداً من المؤلفات في مجال المسرح والنقد والقصة القصيرة. وما ميّزه أنه لم يبدأ مقلدا، بل مجربا ومغامرا منذ روايته الأولى (كانت السماء زرقاء) التي كتبها عام 1965 ولم تنشر إلا في العام 1970، وبدت كخطوة أولى في طريق طويل من الجرأة والتجريب. ومثلما انفتحت رواياته فكريا على القضايا العربية، انفتحت على التجريب الفني من أوسع أبوابه.

لم يكن تيار الوعي، والنبش في دواخل الشخوص عبر التداعي والمونولوج قد

* كاتب سوري مقيم في الكويت.

عرف في الرواية العربية آنذاك إلا على نطاق ضيق، ومع ذلك وجدنا إسماعيل الفهد يعتمده في أولى رواياته (كانت السماء زرقاء). وأبرز دليل على حداثة هذه التقنية والخوف من بلبلة القارئ الذي لم يكن قد اعتادها هو طريقة طباعة الرواية التي ميّزت (التداعي) فيها بحروف غامقة، بينما أبقت على غيره بحروف عادية فاتحة. وقد ثبّت الكاتب ذلك في ملاحظة له وردت في هامش الصفحة الرابعة والعشرين من الرواية: (من أجل زيادة الإيضاح عملنا على أن يكتب التداعي الذي يرد ذهن البطل والتداعي الذي يرد عن طريقه بحروف بارزة).

ليس هذا فحسب، بل أبرزت الرواية مذّاك تقنية فنية أثيرة رافقت الكاتب في جل رواياته، ألا وهي تقنية التقطيع السينمائي/ المونتاج/ التي أحالت النص إلى مشاهد كسرت خطّية التصاعد الزمني الكرونولوجي للحكاية، فتناثرت أجزاؤها على تلك المشاهد، وبات على القارئ أن يجتهد قليلا للملمتها وإعادة تركيبها. كما برزت في هذه الرواية تقنية أسلوبية صارت فيما بعد علامة بارزة في سرد الكاتب، وهي تقنية الاختصار على مستويات التراكيب والزمان والمكان والشخوص. أما التقنية الأبرز التي مخرت معظم نصوص رواياته فهي المحاولات الدائبة لمسرحة الرواية من خلال الاتكاء الكبير على الحوار. كما لا يمكن التغاضي عن تقصّده اعتماد لغة مغايرة عمادها الحذف والاختصار والاستغناء عن أدوات الربط والتأكيد وحروف الجر، وقد غدت هذه التقنيات كما سنرى أهم مرتكزات تجربته الروائية.

1 – الحوار

يشغل الحوار الجزء الأكبر من نص رواية (كانت السماء زرقاء)[1] حيث يتقزم السرد، ويتراجع أمام سطوة الحوار الذي انقسم إلى قسمين: حوار مباشر يجري بين البطل والضابط الجريح، وحوار مستعاد يتداعى إلى ذاكرة البطل ليكشف جزئيات مهمة من الحكاية، ويلقي الضوء بشكل لا مباشر على ماضي البطل والمخاضات التي عملت على إيصاله إلى الوضع الراهن. حاضر وماض يتواشجان فيحملان الحكاية على جناحي الحوار.

تبدأ الرواية من نهاية الحكاية المتمثلة بفشل البطل في الهروب من العراق إلى إيران بعد رصد قوة خفر السواحل قارب التهريب الذي كان يستقله وعدد من الهاربين، حيث تم القبض على مجموعة

(1) (كانت السماء زرقاء)، دار العودة، بيروت 1970

منهم بينما نجا هو والضابط الجريح. بهذا الحاضر تبدأ الرواية، ويبدأ حوار متقطع بينهما يهيئه السرد بتحديد وتوصيف المكان الذي وصلاه والحال التي آلا إليها. ومن خلال الحوار المباشر بينهما تطفر كلمة، أو ينتأ مشهد عبر البيئة المحيطة، فتنفتح ذاكرة البطل على مشهد من الماضي يعيد رصف جزء من الحكاية. فعندما رأى الضوء الأزرق (نقل عينيه عن الأضواء الحمراء التي تعلو خزانات النفط إلى ضوء أزرق بعيد)، تذكر اللقاء الذي جمعه بذات الثوب الأزرق عند الأريكة الخشبية الملقاة إلى جانب الشارع، فاستحضر الحوار الذي دار بينهما (من الصفحة 26 إلى الصفحة 32). وفي الصفحة التالية (حانت منه التفاتة إلى خلف « الشمس تشرق من إيران» وابتسم بغباء). هذه الابتسامة أعادته إلى ابتسامة صاحبه الذي كان يجالسه على الأريكة الخشبية (صاحبه ابتسم - أيضا - عندما ألقى بجسده على الأريكة الخشبية)، فاستحضر الحوار الذي دار بينهما. وخلال حواره الحاضر والمباشر مع الضابط الجريح يتفوه بعبارة (أفيون الأسف)، فيفتح هذا (الأسف) ذاكرته على واقعة طلاقه لزوجته، وحواره مع ذات الرداء الأزرق حول ذلك (62 - 64)، وهكذا.

أما الحوارات المباشرة بينه وبين الضابط، فتمتد متقطعة على طول الرواية لا يفصل بينها إلا الحوارات المستعادة بينه وبين ذات الثوب الأزرق، وبينه وبين زوجته. وفي أغلب الأحيان لا تأتي الحوارات صافية، بل مترافقة مع سرد وصفي يعكس الحال الظاهرية للبطل أحيانا، والحال الباطنية في أحايين أخرى.

الحال ذاتها تتجسد في رواية (الحبل)[2] الصادرة في العام 1972، فالتداعي هو سيد الموقف حيث تبدأ الحكاية من النهاية على غرار (كانت السماء زرقاء)، وبالتالي يتكفل تيار الوعي في تسيل أجزاء الحكاية عبر ذاكرة البطل «كاظم عبيد»، فتأتي في أغلب الأحيان على شكل حوار تصاحبه إشارات سردية تعكس الإحساس الداخلي للشخصية. وليس حاضر البطل إلا رد فعل على ماضيه الذي يتكفل المونولوج باستحضاره على شكل مشاهد لا تحفل بالتتالي الزمني للحكاية، ما يفرض على القارئ تجميعها وإعادة منتجتها لبناء الحكاية ككل. ففي لحظة حاضرة تستعيد ذاكرته الحوار الذي جرى بينه وبين ضابط الأمن حين مداهمة شقته (ص 32)، وعبر التداعي يتذكر عودته إلى مقر عمله بعد خروجه من السجن وحواره مع المسؤول

(2) (الحبل)، دار العودة، بيروت 1972

الكبير (ص 48)، وحين يتذكر حادثة عودته من الكويت إلى العراق يتداعى أمامه مشهد توقيفه عند الحدود (ص62).

وتكاد هيمنة الحوار في رواية (ملف الحادثة 67)[3] أن تدخلها في خانة المسرحية، فالكاتب لم يكتف بأن يبتلع الحوار الرواية كلها، بل عمد إلى تأثيث خشبة المسرح قبل صعود الشخصيات المتحاورة، فحدد الزمان والمكان والحالة قبل الدخول في كل مشهد من مشاهد الرواية: (الزمان: الآن. المكان: غرفة تحقيق، مع المحقق الأول. الحالة: استجواب ص 7)، (المكان: غرفة تحقيق، مع المحقق الثاني. الحالة: استجواب ص 15)، (المكان: سيارة جيب، مع الشرطي. الحالة: حوار ص 23)، (المكان: صالة واسعة، مع الكلب. الحالة: على حافة الهذيان ص 34) وهكذا.

أما الحوارات التي تلت سيناريوهات إعداد المسرح فانقسمت إلى حوارات مباشرة، وأخرى استعادية عبر تيار الوعي. وحتى لا يغيب السارد تماما ويقع الكاتب في فخ المسرح الخالص عمد إلى تأثيث الحوار بالإشارات السردية الشارحة والواصفة والموجِّهة:

(المحقق يطبق الملف بعصبية. يخرج سيجارة. ينفث الدخان بنفاد صبر.

المحقق: أنت عنيد وبليد!

المتهم: ...

يد المحقق تمتد إلى المذياع الصغير أمامه. يدير المفتاح.

المذياع: لكن وسائل دفاعنا الجوي استطاعت أن تجبر الطائرات المغيرة على الفرار...الخ ص 7–8)

وفي بعض الأحيان يأتي الحوار خالصا، عاريا من أي إشارات سردية كالحوار الذي يدور بين المتهم والشرطي الذي يصحبه لمواجهة الكلب البوليسي (ص 24). وأحياناً يكون الحوار استعادياً تستدعيه الذاكرة عبر المونولوج، ويأتي مدعما بإشارات سردية خاطفة تكشف دخيلة البطل: (قلبي يحدثني: – ابتعد!! لكن الأنين المفجوع: آآه .. آآ ... فكان قرارا سريعا: لأقترب .. وأرى! قلبي يعود يحدثني: – الابتعاد أفضل ... الخ ص 50)

ويتنوع الحوار في رواية (الطيور والأصدقاء)[4] التي لا يتجاوز زمنها زمن سهرة فنية تقام في أحد الفنادق ويحضرها البطل وصديقته، ومجموعة من التجار، وعدد من الفنانين، حيث يغص

(3) (ملف الحادثة 67)، دار المدى، دمشق، ط3، 1996

(4) (الطيور والأصدقاء)، دار المدى، دمشق 1996

المتن بمشاهد حوارية مختلفة تدور بين أفراد كل فئة من هذه الفئات، إضافة إلى حوارات برقية بين فئات أخرى من الحضور. وبينما يكون الحوار حاضرا وصريحا في وسطي التجار والفنانين، نقع على حوارات استعادية تتداعى عبر ذاكرة البطل، وتأتي في ثنايا الحوار المباشر والمتقطع بينه وبين صديقته المنسجمة بأجواء الحفل، وكالعادة تأتي ملفوفة بغلالة سردية تصف وتؤشر وتتضح الدواخل:

(الذكرى تقترن برغبة عارمة لتدخين سيجارة. تمد يدك إلى علبة سجائرك. العلبة تقترن بوجه صديق آخر كان قد تداعى في مخيلتك قبل قليل... « سأكتب لهذا اللحن شعرا جديرا به!». صرّح بلهجة تنم عن الإصرار. كنتم في إحدى رحلاتكم الخلوية. ساعتها ضحكتم جميعا. « موعد عرقوبي!» ص 30–31).

ويُقصي الحوار السرد إلى حد بعيد في رواية (يحدث أمس)[5] أيضا، فتبدو الغلبة له بلا منازع. وعلى طريقته الأثيرة

(5) (يحدث أمس)، دار المدى، دمشق 1997

يبني إسماعيل الفهد نص الرواية بأسلوب تيار الوعي، فيبدأ الحكاية من نهاياتها، ثم يسلس القياد للتداعي للعودة إلى البدايات بشكل متعرج لا خطي، فتنبثق جزئيات الحكاية من خلال حوارات مباشرة ومستعادة، مصحوبة بسرد مقتصد، يصف ويشرح ويكشف. وهكذا، تنسج الرواية خيوطها الحكائية بالحوار لا بالسرد. فمن السجن المغلق الذي انتهت إليه الشخصيات الرئيسة الثلاث تحملنا الحوارات إلى الفضاء الحياتي المفتوح في الخارج، فنتعرف من خلال بوحها المباشر، أو المحمول على جناحي الذاكرة، على الحيوات الماضية لكل منهم، والظروف المحيطة التي أوصلتهم إلى هذا السجن.

يقودنا الحوار منذ الصفحة الأولى للرواية ولا يدعنا إلا مع طي الصفحة الأخيرة منها، لكن تبقى للسرد مهمته المقتضبة في التوجيه وكشف الحال الداخلية والخارجية للمتحاورين، ويتضح ذلك منذ البداية من خلال حوار سليمان يوسف العائد من الكويت إلى البصرة بعد غياب دام سبع سنوات مع السائق الذي أوصله إلى القرية:

(- المكان الذي أقصده هو قرية باب الهوى.

باب الهوى؟!

يرددها السائق كما الأحجية المستغلقة. ابتسامة متفهمة ترتسم على فم سليمان، يعود يوضح:

قرية صغيرة ملحقة بقرية السبيليات.

الأحجية وقد استغلقت على السائق أكثر:

السبيليات؟! ... ص10).

وحين يصل السجن يبادره الموقوف حاكم سلطان:

(- أنت غريب على البلد.

قالها بتقريرية دالة، واستطرد:

.. والدليل أنك تصرفت برعونة.

اللهجة التقريرية لا تهدف تهين بقدر ما تهدف تؤكد.

رعونة!!

النعت يعبر إلى ذاكرة سليمان يحفزها أكثر ... ص43).

المعالجة ذاتها نراها في روايتي (بعيدا إلى هنا) و(الكائن الظل)، ففي حين يفترش الحوار مساحات واسعة من نص الأولى، نراه يطغى على نص الثانية حتى يكاد يحيلها إلى مسرحية. وفي الروايتين يبقي الكاتب على السرد كموجّه وواصف

وكاشف. ففي سياق تحضير سعود ودلال للاحتفال بالذكرى الثانية لزواجهما في (بعيداً إلى هنا)[6] تخاطب دلال زوجها:

(– سعود!

تلفظت اسمه كمن ينبهه.

مقتضيات التحضير!

أضافت مؤنبة، لتختم تعتبه:

يفترض بك تعيش عصرك!

«قول الأمر الواقع، أو التسليم به» ص8).

وحين تدخل الخادمة المتهمة كوماري غرفة حجز النساء:

مرحبا

استقبلنك بحفاوة زمالة مفترضة.

ليس ما يدعوك للجزع!

هونت عليك إحداهن. استفهمتك ملاطفة:

جريمتك؟... ص62–63).

في (الكائن الظل)[7] يتعملق الحوار ويتصدى لحمل الرواية بأغلبها، كتقنية رئيسة وركيزة أساسية في بنائها الفني، ليرتضي السرد بدوره الثانوي الذي رأيناه في الروايات سالفة الذكر، فالرواية تتخذ من الفانتازيا أفقا لها ويتجسد ذلك بظهور حرامي بغداد (حمدون بن حمدي) أيام الحكم العباسي لطالب جامعي يعد رسالة بعنوان (بواعث العجب في حياة أشهر لصوص العرب)، فيتواصل الحوار بين الشخصيتين من بداية الرواية حتى نهايتها، ليستحضر أحوال ومكانة وآليات عمل اللصوص في ذلك العصر، مع بعض الإحالات على العصر الحالي.

2 – المونتاج

ظهر ولع إسماعيل الفهد بتقنية المونتاج السينمائي منذ روايته الأولى (كانت السماء زرقاء)، إذ عمد إلى تجزئة الحكاية وتوزيعها على مشاهد يتبدل معها الزمان والمكان، ولا يعني تتابعها التتابع الحكائي الكرونولوجي. فهذا مشهد يتابع الزمن الحاضر، يليه آخر ينفتح على الماضي. وذاك مشهد ينير العالم الخارجي للشخصية والحدث، يتبعه آخر يغوص في العالم الداخلي، وفي مكان آخر مختلف تماما وهكذا. وقد رافقت هذه التقنية الكاتب في أغلب رواياته بعد ذلك حتى غدت من أبرز التقنيات السردية عنده.

ففي (كانت السماء زرقاء) يباشر الكاتب الرواية بمشهد البطل وقد نجا

(6) (بعيدا إلى هنا)، دار المدى، دمشق 2001

(7) (الكائن الظل)، دار المدى، دمشق 2001

من خفر السواحل ووصل الشاطئ، حيث صادف أرضا محاطة بأسلاك شائكة وقد علق زميله الضابط بها. وفي المشهد التالي يعود إلى الوراء ليتذكر حادثة اكتشاف خفر السواحل لزورقهم (كانت الساعة تقارب الثانية بعد منتصف الليل عندما وقعت الحادثة. النوتي قال: سأعبر بكم شط العرب قبل الفجر بقليل... ص 20). ويعود إلى الوراء أكثر في المشهد التالي ليصور اجتماع الهاربين في كوخ في ناحية (السيبة) استعدادا لركوب الزورق (لست منهم. تمتم بدهشة عندما وقعت عيناه على الوجوه التي يربو عددها على العشرين ... ص 21). بعد ذلك يقتطع لنا من الماضي مشهد لقاء البطل بذات الرداء الأزرق (كان ثوبها أزرق ضيقا يبرز مفاتن صدرها وفخذيها. حدث ذلك قبل يومين ... ص 24). وهكذا، تتوالى المشاهد لتبرز لنا لوحات حكائية تنوس بين الحاضر والماضي، فمشهد يصوره مع الضابط الجريح، وآخر مع ذات الثوب الأزرق، وثالث مع زوجته، ورابع مع صديقه على الأريكة الخشبية .. الخ، ويحدث كل ذلك وفق مسار حكائي متعرج يفرض على القارئ تجميع المشاهد لإعادة صياغتها حسب التتابع الزمني للحدث الحكائي، لا تتابع المشاهد.

تظهر هذه التقنية بجلاء أكبر في رواية (ملف الحادثة 67)، حيث يتم الانتقال من مشهد إلى آخر عبر التهيئة لدخول المشهد بالاستعانة بتقنية السيناريو التي تحدد المكان والزمان والحالة مسبقا قبل تصوير المشهد. هذا تماما ما فعله الكاتب بحرصه على التمهيد للمشهد بترسيمة سيناريو، فنقرأ في بداية الرواية، وقبل بدء المشهد: (الزمان: الآن. المكان: غرفة تحقيق، مع المحقق الأول. الحالة: استجواب ص 7). وفي المشهد التالي نقرأ: (المكان: غرفة تحقيق، مع المحقق الثاني. الحالة: استجواب ص 15). وفي مشهد آخر نقرأ: (المكان: سيارة جيب، مع الشرطي. الحالة: حوار ص23)، وتتوالى الترسيمات والمشاهد حتى آخر الرواية.

وبحكم المكان الوحيد الذي تدور فيه أحداث رواية (الطيور والأصدقاء)، وهو قاعة كبيرة في فندق يقام فيه حفل فني، يسخّر الكاتب تقنية المشهد لتوسيع نطاق الرؤية وإلقاء الضوء على الشرائح المختلفة الحاضرة لهذا الحفل وتنوع اهتماماتها. تبدأ الرواية بمشهد تقديم الحفل، يليه مباشرة مشهد يضم شخصين يسأل أحدهما الآخر عن التذاكر: (أظنك عانيت ريثما حصلت على تذكرتك؟... بكم اشتريتها؟...وأنت؟ .. بطاقة شرف

ص 11–12). ويتوالى التقطيع السينمائي في الرواية، فتارة يأخذنا إلى حديث بين تاجرين يحضران الحفل (... لا يمكن أن نبقى صامتين إلى ما لا نهاية إزاء قانون إيجارات متخلف ... ص23)، وفي أخرى إلى حديث بين فنانين في القاعة (قررت أسند دور البطولة في المسلسل التلفزيوني القادم لفنانتنا المبدعة فلانة ... ص 25). هذا عدا المشاهد المتقطعة التي ترصد ما يدور بين البطل وصديقته، وبين البطل، الذي يظهر عليه الملل وعدم الانسجام مع أجواء الحفل، ومخيلته التي تتداعى لاستحضار أحداث ماضية من حياته (انظر الصفحات 30 – 31 – 37).

وفي (بعيداً إلى هنا) تتوالى مجموعة من المشاهد لتكوّن اللوحة العامة للرواية، حيث يكوّن كل مشهد جزءا من اللوحة التي لا تتكامل إلا بالانتهاء من رصف تلك المشاهد فيها. ففي البداية يطالعنا مشهد اعتزام دلال الاحتفال بالذكرى الثانية لزواجها من سعود، واضطرار سعود شراء هدية ثمينة لها بالمناسبة تمثلت بعقد مرصع بالماس البلجيكي. وفي المشهد التالي نفاجأ بضياع العقد واحتدام الجدل بين الزوجين عن كيفية ضياعه، والتلميح إلى إمكانية أن تكون الخادمة «كوماري» قد سرقته. يعقب ذلك مشهد يرصد وصول الخادمة للمرة الأولى إلى الكويت، واستقبال الزوجين لها في المطار. ثم تتوالى مشاهد التحقيق مع الخادمة، يتخللها مشهد تعاقد كوماري مع مكتب العمالة في كولومبو للعمل في الكويت ...إلخ.

في (الكائن الظل) يحيلنا الكاتب إلى السينما مباشرة، ويضعنا أمام شاشة سينمائية موازية تعرض لنا عددا من المشاهد التي عاشها حرامي بغداد حمدون حمدي في العصر العباسي، إذ ترتسم على جدار غرفة الطالب شاشة سينمائية تعرض المعركة التي دارت بين جند الأمين وجيش المأمون في واقعة حسم الخلافة بعد هارون الرشيد وفرار إبراهيم بن المهدي، أخو هارون الرشيد، إلى بيت أحد اللصوص الذي تكفل بإخفائه (ص 26–30)، ثم تعرض لحادثة معن بن زائدة والسياف مسرور (ص 35–39)، فمشهد اللقاء الأخير بين حمدون وعشيقته فتنة (ص –52 55)، وواقعة احتضار مالك بن الريب في خان على مشارف خرسان وكتابته قصيدته الأخيرة، وأخيرا مشهد إعدام بن حمدي (105–120).

3 – اللغة

لم يَقصُر إسماعيل فهد إسماعيل مغامرته في التجريب على التقنيات السردية الجديدة كتيار الوعي والمونتاج

السينمائي ومسرحة الرواية، بل تجرأ أكثر وغامر في اللعب على اللغة في محاولة حثيثة ومتواصلة لجعلها تقنية من تقنيات البناء الفني الروائي، ونقلها من قطبها الاعتيادي في التوصيل النفعي المباشر إلى كون مشبع بالتأويل والدلالات، وقد ظهر ذلك منذ روايته الأولى (كانت السماء زرقاء)، وتطور أكثر فأكثر في رواياته اللاحقة. ففي الرواية الأولى نقرأ: (اقفز!! .. الأسلاك! ص 8)، (مادامت ... فلأكن ... ص 26)، (كل شيء ... حتى الهدف الذي رميت ... من جراء كسب ... ص73).

ويظهر ذلك بجلاء أكثر في رواية (ملف الحادثة 67) حيث نقرأ: (عندما ... عليك ... تسكت ... ص13)، (أنا ... أنتم ... لو ... ص 18)، (هو مجرد كلب ... صحيح هو كبير ... لكنه بالرغم ... يا إلهي! ص 35). ونرى الكاتب يمارس الحذف المتعمد في رواية (الطيور والأصدقاء): (ليست مشكلة .. أستطيع وأنا أغادر الحفلة ... ص 13)، و(مناسبة سعيدة ... أنت مدعو... وإن شئت يمكنك أن ... ص 74).

الوظائف ذاتها في التأويل، واستحضار العالم الداخلي للشخصية، وتكثيف المعنى تحملها النقاط في الجمل المبتورة الواردة في رواية (يحدث أمس) مثل: (لو أن السيارة ... ص 11)، (طعام الغداء لم يكن قد ... فسارعت إلى مخزون التمر .. ص 20)، (سيدي ... رحلاتي ... لم تكن ...ص71). وفي رواية (بعيدا إلى هنا) حيث (دقائق ... بعدها .. البيت ص7)، (نقودنا التي ادخرناها لتغطية مصاريف سفرتنا بالكاد ... ص14)، (النوم ... يستعصي ... غالبا .. ص 64)، (أبي ... السرطان ... عملية جراحية... ص 71). وهو ما نقع عليه كذلك في رواية (الكائن الظل) إذ (لم أتشكك بقواي العقلية لأن الظواهر الحسية المصاحبة ... ص21)، و (نضيع ألف دينار ذهبا! ... هذا عدا ... ص 29)، و(لو أن متنفذي عصرنا ... ص 45)، و(تعني أن لا ... ص74).

وما ميّز أسلوبه أكثر هو الخرق اللغوي الذي اتخذه كلازمة تتكرر في عدد من رواياته بغض النظر عن مسوغه النحوي، فقد عمد في كثير من جمله إلى الاستغناء عن أدوات الربط وحروف الجر وأدوات التأكيد، إضافة إلى استئناسه استخدام الأفعال بشكل تعاقبي دون أي فاصل أو رابط. ومن السهل على القارئ ملاحظة ذلك في روايات عديدة للمؤلف، كأن نقرأ في رواية (يحدث أمس): (كان يعشق يجيء يزورها يوم الخميس ص 8)، و(يؤلمه يتركه هكذا ملقى على ظهره ص 30)، و(من أين له، وهو يهم يدلف باب الهوى .. ص45)،

و(يجب يكون عند مستوى المسؤولية ص 91).

مثل هذه التراكيب نلمسها في (بعيد إلى هنا) حيث (بادرت دعوت أصدقاءنا الخلّص ص13)، و(كنت أحرص أحفظ جواهري هناك ص 20)، و(إصراره يوليك رعايته ص 74). وفي (الكائن الظل) نقرأ: (عاد همس بجديته إياها ص 8)، و(حرص الرجل يلتفت يمنة ويسرة ص35)، و(أدريني جازفت سايرت لصا .. ص113). كما نقع على مثل هذه التراكيب في رواية (مسك)[8] إذ نقرأ: (تنبهت أمسكت أنّة أوشكت تفلت منك ص 15)، و(مادمنا عقر دارهم ص 30)، و(سارعوا وفروا له سيارة باص صغيرة ص97).

4 – المونولوج المباشر

كان من الطبيعي أن يشغل المونولوج حيزا واسعا في أغلب روايات إسماعيل فهد إسماعيل لاتخاذه من تيار الوعي تقنية سردية حميمة طالما اتكأ عليها، لكن ما يلفت الانتباه أنه تحيز إلى النوع المباشر من المونولوج في مغامرة هدفت إلغاء الحاجز بين القارئ والشخصية، والاستغناء عن الراوي في كثير من الأحيان كصلة وصل بين الاثنين. لقد صارت الشخصية تقدم نفسها بنفسها دون وسيط، فتنقل ما يجيش في داخلها إلى القارئ مباشرة عبر شاشة لا يراها غيره. إنه خطاب غير منطوق بالنسبة للشخصية صاحبة المونولوج، وغير مسموع بالنسبة للشخصيات الأخرى في الرواية. خطاب الذات تحميه ضفيرتان مزدوجتان، ويحمله المتن كشاشة عرض لا يراها إلا المتلقي.

تمكّن الكاتب بهذه الطريقة من خلق تواز بين العالمين الخارجي والداخلي للشخصية، فتساوق الظاهر والباطن جنبا إلى جنب، ما ضاعف من حدة التوتر الدرامي، وفتح الباب واسعا أمام القارئ للتمعن بالصورة كاملة. وقد ظهر اهتمام الكاتب بهذه التقنية منذ روايته الأولى (كانت السماء زرقاء)، حيث رأينا البطل يفرغ ما بداخله مباشرة مع كل احتكاك له بالخارج، ودون أي تمهيد من الراوي. فحين يسمع من يأمره (اركض) نجده يحدث نفسه «عليهم اللعنة ص 17»، وحين يطلب منه الضابط الجريح (اقفز)، نسمعه يسارر نفسه «أنا لا أعرفه ص 18»، وعندما يسمع (عشرون منهم في الزورق.. نوتي الزورق اعترف .. هرب منهم ثلاثة .. ص19)، نراه يتفطن «إذاً .. أنا أحد الثلاثة ص19» وهكذا.

نصادف ذلك أيضاً في (ملف الحادثة

(8) (مسك)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2009

67)، فحين يطلع الشرطيُ المتهمَ على أنه سيفك قيده حتى لا يشك به الكلب البوليسي، يفاجأ فيسائل ذاته:» وهل يشك الكلب؟! ص 29»، وعندما يجد الضحية ملقى على الأرض تتملكه الحيرة: «هل أنفذ بجلدي .. هل أبقى لمساعدته ص 51». الأمر ذاته في (الطيور والأصدقاء) إذ ينسحب البطل إلى عالمه الداخلي بعيدا عن عالم الحفل الفني الضاج أمامه وحوله، فيسائل ذاته: « ترى من الزائف فينا؟ .. الزمان أم أنا؟! ص17»، وحين يتذكر أحد أصدقائه يتساءل: «لماذا هذا الصديق بالذات؟! ص29»، وعندما تلح عليه مرافقته في الحفل أن يشاركها استمتاعها يضيق بها وبعالمها: «ما أكثر رغباتها؟! ص 46».

ويعرض البطل في (يحدث أمس) على شاشة القارئ الكثير من هواجسه وصراعاته الداخلية: «ماذا لو أن السيارة ... ص 11»، و»حتى لو ناموا.. المفتاح الاحتياطي لباب البيت معي.. ص20»، و»لو أعرف ما يريدونه!! ص 29»، و» من المقصود بنحن؟ ... من المقصود بأنتم؟! ص 69»، و»التعاطف وارد .. أم ماذا؟! ص115.

كما نقع على كثير من ذلك في (بعيدا إلى هنا) مثل: «ترانا..إذن..ص 10»، «النساء شأنهن .. خلوتهن ص16»، «لو كنت في بلدي ص30»، «لو أن الزمن جمد في اللحظة! ص 76»، «كأني أعرفه .. توّي! ص97». وكذا الحال في (الكائن الظل) على الرغم من طغيان الحوار عليها: «لو أن شجاعتي لم تخني ص14»، «الغلبة لمن؟! ص26»، «أنى لي أتآلف والذي يحدث؟! ص39»، «من أين يتأتى الفهم؟! ص71». ونجد الأسلوب نفسه في رواية (مسك): «التخلي العقلاني أو الغدر.. أيهما؟! ص10»، « تراه تساءل عن طبيعة الرائحة العطرية الصادمة؟! ص29»، «هل بإمكانه تخليه عن ذاته؟! ص 59» ..الخ.

يبقى أن ألفت النظر إلى أن هذه المرتكزات الأسلوبية في روايات إسماعيل فهد إسماعيل قد وجدت أول متنفس لها في مجموعته القصصية الأولى (البقعة الداكنة)، التي نشرها في العام 1965، أي قبل خمس سنوات من نشر روايته الأولى (كانت السماء زرقاء)، إذ يمكن وبكل سهولة رصد تعلقه بتقنيات المونتاج والمونولوج والحوار وبتر الجمل في تلك المجموعة، لكن بعيدا عن الخرق اللغوي الذي يبدو أنه لم يكن قد تجرأ على دخول مغامرته آنذاك[9].

(9) للاستزادة ينظر: (ملامح الحركة القصصية في الكويت)، عبدالكريم المقداد، الهيئة العامة السورية للكتاب 2007

هل حقاً رحل إسماعيل؟

ذات صبيحة غامقة أفقت متململا، مبقيا على خدر تمدد بين أطرافي، ولم أكن راغبا في مغادرة الفراش لو لا أني كنت ملتزما بتقديم مقالة صحفية وكان علي إرسالها - قبل موعد نشرها بساعات- وقد تجاوز الوقت من غير أن أفعل ذلك .

بقلم: عبده خال *

قبل هذا الوضع بيومين أو ثلاثة، كنت أسترجع الذكريات من خلال الصور، فثمة مؤتمرات أو ندوات تلتقي فيها بالأصدقاء الكتاب والذين لا تجدهم إلا من خلال إبداعاتهم، فيكون التواصل من خلال القراءة هو المبتدئ.. وكنت أقلب ذلك الألبوم الحاوي لكثير من اللقاءات في المحافل الأدبية، لتصادف عيناي وجوه الأصدقاء الذين ربطتنا الكتابة قبل اللقاء، كثير من الأدباء يعرفون بعضهم من خلال ما يكتبون، وتصبح أي مناسبة ثقافية فرصة لاقتراب القلب من القلب، والكلمات من الحروف، والضحكات من الفرح..

كان يقول لي الصديق سعيد الكفراوي مادام هناك متسع من الأرض فسوف نلتقي.. ونشطت المؤتمرات العربية واجتذبت العشرات من الكتاب وكان ثمة حلم يلوح أن عالمنا العربي مقدم على تصميم من أجل تخطى خيبات الآمال وتثبيت مجاديف القوارب المبحرة، فهل كان ذلك مجرد سراب؟

* كاتب سعودي.

في زمن قصير نزل بنا العذاب، وكأننا أمة كفرت فحاق بنا سوء المنقلب إلى نهاية ليس لها نهاية، فما أن أطل الربيع العربي بثوراته حتى وجدنا أقدامنا ترسب في وحل لازب، ودولنا تتقطع كندف القطن، وأحلامنا تتبخر في إناء سلطت عليه نار موقدة، زمن جذب الدمار للأمة تعاني من دمار، فجاءت الثورة وقد كانت حلما لكل كاتب من أجل الانتقال من الرخاوة والملامح الغائمة إلى مستقبل واضح التقاسيم يكون فيه الإنسان هو القاسم المشترك، وأن تكون الحرية هي السارية التي يلجأ إليها كل محب للحياة وللعمل..

كانت أحلام المثقفين بالثورة هي صناعة المستقبل إلا أن ثورات الربيع العربي كانت تحمل راية العودة إلى الماضي وقد أغلقت بوابات المستقبل لذا تبرأ من كان يفقه أبجديات الثورات الظلامية، وكان أول مهام تلك الثورات تقويض مراكز الثقافة العربية وترك بلادنا العربية تذب انهياراتها باسترحام اللاجئين في الدخول إلى دوائر الأمن المحدودة التي تقبل بهم.. دخلنا في زمن الموت، موت كل شيء ودفن الأحلام التي كنا نتحرك بها وفيها..

حسرة تجمعها من أطراف الأرض كلما أيقنت أن أمتك ماضيها أفضل من حاضرها، وهذا على المستوى المعيشي وليس على مستوى التقدم والتحضر، فجبروت الحاضر يمنعك التفوه بما كنت تقوله في الماضي القريب، وغدا عالمنا العربي كسجادة تطوى لأن تتكوم على بعضها.. هذه هي الحسرة التي انتابتني وأنا أركض ببصري في وجوه الأصدقاء من العالم العربي إذ أن هناك من الأصدقاء خرجوا بحثا عن لجوء آمن، فالثورة التي طالبوا بها أخرجتهم من ديارهم وهدمت كل شيء من الحلم إلى وحدة الوجود.

أغلقت الألبوم على صورة جمعت بيني وبين الصديقين إسماعيل فهد إسماعيل وطالب الرفاعي حينما كنا في مؤتمر الرواية بالقاهرة..

كان ذلك المؤتمر هو اللقاء الأول بالروائي الجميل إسماعيل فهد إسماعيل، وعادة في المؤتمرات تتشكل مجاميع تأنس بعضها لبعض، فيلتقون ويُسرون سويا، وكنت محظوظا بلمتنا التي جمعت أدباء من معظم الدول العربية.

ولم أكن على علم أنني سوف أستيقظ من نومي على خبر رحيل إسماعيل فهد إسماعيل.. لم أكن على علم بهذا.!

هناك من يسقط فيسقط بعضك.

أصعب قول يمكن قوله في حالة الفقد...

يوميا يرحل الملايين، واحد منهم يترك يدك لينزل في المحطة الأخيرة، ينزل من غير وداع وكأن الحياة بحر غزير المياه، وإذا تنبهت لفقد عزيز تستشعر أن الحياة نفس وانقضى..

استيقظت ذات صباح لأجد فاجعة تنبىء عن رحيل الصديق الروائي إسماعيل فهد إسماعيل، كان الخبر يؤكد أن إسماعيل قد لوح بتحية الوداع.. فهل نمسك الراحلين عبر تجاويف مخيلتنا فلا يغدرونها أبدا، وهذا ما يحد مع من تحب، تبقيه طيفا لايغادر تجاويف مخيلتك حتى إذ اشتقت إليه تسل طيفه لتحدثه أو تسترجع ما قال في زمن من الأزمان.

وقد كان أول لقاء بيني وبين هذا الروائي الكبير والذي يعد مؤسس الرواية الكويتية الحديثة من خلال قراءة رواية (الحبل) وفي مسيرتي الأدبية حملته مع من حملت على أنه كاتب متميز يمنحك شعور الالتصاق بالأرض والقضايا الإنسانية، ومع كارثة احتلال الكويت كانت الكلمات والأحلام القومية تتساقط، والأذهان تتعارك لمعرفة ماذا حدث ولماذا؟

إن احتلال الكويت كانت الطعنة الأولى التي تغلغلت في الخاصرة، ولم يكن من الممكن استيعاب عمق الجرح، والجسد يتطوح ويذرف الآهات من غير الافصاح أن القاتل هو ابن القلب، وأصعب

شيء عندما يثور على جسدك عضو من أعضائك، أو أن يقترب إليك الفناء من خلال أنفاسك..

كان احتلال الكويت هو المشهد الدرامي لرواية كتبت بدايتها بذلك الاحتلال، ولمن واصل قراءة الواقع العربي سوف يتأكد أن احتلال الكويت كان بداية لرواية تهشم مراكز التنوير وتلقى برايات الحضارة للوحل وتستقدم وحوشا لعصر الظلام..

تلك البداية الرواية الواقعية كان فضاءها الكويت، وأذكر أنني كتبت حينها تشابه الاحتلال لدولتين عربيتين إحداهما احتلال صهيوني والآخر قومي عربي.

هذا الاستهلال القهري من خلال الاحتلال نهضت النفوس فنا ومساندة أي فعل يعيد للكويت حريتها، وقد اشتعلت مصابيح الفن والأدب للتبشير بالعودة، ومع العودة، كانت مراحل الاحتلال مادة خصبة للروائي إسماعيل فهد إسماعيل لأن يكتب سباعيته الروائية (إحداثيات زمن العزلة)، وأذكر أنني داومت على قراءتها في ثلاثة أيام متلازمة..

هناك تحرك الروائي في طريق مباشر

من غير اعوجاج لكي يقول ويشرح ما حدث متخليا عن فنيات الكتابة التي تكتب في حالة الاسترخاء، سباعية روائية لم تترك جانبا إلا ووقفت عليه كتسجيل شاهدة كتابية عما حدث.

وتواصلت القراءات في رواياته، ولم تكن العلاقة الشخصية قائمة إلا من خلال قارئ وكاتب، ومع توالي الأيام التقيت به في مهرجان الرواية بالقاهرة، واكتشفت إنسانية ذلك الكاتب، فإذا به يفوق رواياته إبداعا، وتواصلت لقاءات المهرجانات والمؤتمرات العربية وكلما كنا نلتقي في أحدها يتواصل الحب والذكريات عن الرحلات والمؤتمرات السابقة، ومع صبيحة إحدى الأيام كنت مصلوبا بخبر الرحيل الآن ليس من شيء سوى خيط ذكريات يمتد بيني وبين قلب إسماعيل، التقينا على أرصفة العالم العربي ننشد الخير والعدل والمساواة..كانت أيام قصيرة متفرقة إلا أن هناك اطمئناناً بأنه لايزال يكتب ويحلم.. الآن لا أملك إلا خيط ذكرى أجمعه مع خبر عاصف وسؤال مرتج:

– هل حقاً رحل إسماعيل؟

إسماعيل فهد إسماعيل... إمكانيات روائية

بقلم: علي المقري *

بدأ إسماعيل فهد إسماعيل (1940 – 2018) حياته الأدبية في ستينيات القرن العشرين مع موجة الأدب الملتزم، التي كانت تصرّح بأن «الأديب موقف»، يقول، عبر إنتاجه الأدبي، رأيه عما يجري حوله من أحداث، هي في الغالب سياسية. لهذا شكّل هذا المنحى في الكتابة أبرز ملامح الإنتاج الأدبي وقتها، بما في ذلك الكتابات ذات النزعات القلقة التي جاءت بعد حرب 1967، إذ بدت وكأنها امتداد لهذه الموجة بانعكاسها لانتكاسات وخيبات التطلعات القومية والوطنية، وقد شكّل إسماعيل، الذي ولد في البصرة ثم انتقل إلى موطنه الكويت، في معظم إنتاجه صورة لهذه التحولات. هكذا يمكن قراءة أعماله الأولى: كانت السماء زرقاء (1970)، المستنقعات الضوئية (1971) والحبل (1972)، مع اهتمام خاص بشكل الكتابة الروائية ومحاولة ربط الجانب الفني بالإشكاليات المطروحة، إلاّ أن هذا الجانب لم يصمد طويلا وبدا الجانب السياسي/الأيديولوجي أحد ملامح الكتابة اللاحقة كما في: الضفاف الأخرى (1973)، ملف الحادثة 67 (1975) والشياح (1975).

* كاتب يمني.

وإذا كان إسماعيل قد أكد منذ البداية على أهمية وجود «دور اجتماعي» للأدب، فإنه قد فصّل في ما بعد قوله بأن الأدب قد يكون له هذا الدور، ولكن من المهم أن لا ينطلق من أيديولوجية أو سلطة سياسية موجِّهة له. وقد عرف عن الكاتب التزامه الإنساني في حياته أيضاً، إلى جانب التزامه الأدبي، إذ ذكر في مقابلة صحافية معه أنّه كان يستقبل، في منزله بالكويت، الأدباء والسياسيين المضطهدين من قبل السلطة العراقية في منتصف سبعينيات القرن الماضي، ويقوم بتقديمهم إلى سفير اليمن الجنوبي (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) الذي ربطته علاقة صداقة معه، ليمنحهم جوازات سفر يمنية تمكنهم من المغادرة إلى محطة أخرى.

لا تخلو معظم روايات إسماعيل فهد إسماعيل من ذكر السجن أو الإشارة إليه، وهو باستمرار يتفحص محنة الإنسان مع السلطة وإداراتها المتعددة التي تحوله إلى كائن هش وهامشي، مثل «مستنقعات ضوئية»، «الحبل»، «الضفاف الأخرى»، «يحدث أمس»، «بعيداً إلى هنا» و«طيور التاجي».

وفي قراءة أعماله نستكشف إمكانيات سردية كثيرة للكتابة كالعودة إلى التاريخ من أجل امتحان أحداث وحيوات ما زالت مؤثرة أو مشابهة لأحوال تالية ومعاصرة، مثل رواية «النيل يجري شمالاً- البدايات» والتي يتناول فيها تواجد نابليون في مصر، ورواية «النيل: الطعم والرائحة» مداخلاً في ذلك بين حوليات المؤرخ الجبرتي والأحوال المعيشة كما يراها. وهناك رواية «الكائن الظل» التي تذهب إلى الماضي في تخيل فانتازي لتستدعي أشهر اللصوص في التاريخ العربي. ولعل أبرز رواياته الأخيرة «الظهور الثاني لابن لعيون» (2015) تبرز اشتغال الكاتب بمقاربات الأحداث التاريخية، فمحمد ابن لعيون هو شاعر غزل نبطي عاش في أوائل القرن التاسع عشر (ت 1831)، ولد في منطقة ما كان يسمى حينها بنجد والحجاز ثم انتقل إلى البصرة ومنها إلى الكويت وتوفي فيها إثر إصابته بالطاعون؛ كان قبره مزاراً لمحبي اللهو حيث تداولت الكثير من القصص حول حياته وأشعاره وزوّار قبره ومن ذلك أنه أوصى أن يدفن على قارعة طريق يعبرن منه النساء، وقد أدى ذلك إلى هدم قبره مع ظهور الطلائع الأولى لكتائب الوهابية المتطرّفة التي

بدأت في الانتشار على مستوى الجزيرة العربية والخليج، وحاولت أن تقصي كل مظاهر الحياة الاجتماعية التي تخالف تعاليم المذهب الجديد. ويداخل الكاتب بين قصة لعيون التي تقدمه الرواية بشكل فنتازي يظهر معه كل دورة حياتية وقصّة إنشاء أول مستشفى أمريكي في الكويت عام 1913 من خلال طبيب بريطاني.

هناك إمكانية سردية أخرى يمكن القول إنها مدوية وملحة في المجتمع الكويتي وهي إشكالية فئة البدون وتحقق المواطنة، وقد تناولها عبر روايته «في حضرة العنقاء والخل الوفي» (2012) حيث يبرز فيها إشكالية الهوية والانتماء للوطن وتحقق الذات الفردية مع مفارقات الأحداث الجارية، وهذا الصراع الهوياتي خبره الكاتب حين ولد ونشأ في البصرة، جنوب العراق، حاملا هوّية مغايرة للمكان، تنتمي لعائلته، حيث كانوا ينادونه بالكويتي، وإذ هاجر إلى موطن أبيه الأصلي الكويت بعد اكتساب عادات ولهجة المجتمع العراقي فإنّهم صاروا ينادونه بالعراقي، حسب قوله في لقاء أدبي «حين كنتُ في البصرة في نهاية الخمسينات وأوائل الستينيات من القرن الماضي، كنتُ ألبس دشداشة ونعال نجدي، وأضع الغترة على الكتف، وكانوا يقولون لي: روح يا الكويتي، تعال يا الكويتي، ومنذ وصلت الكويت لا يوجد لدي حتى دشداشة في البيت، وقد صاروا يقولون لي: تعال يا العراقي، روح يا العراقي».

ويتجلى ارتباط الكاتب بالمكان العراقي في معظم رواياته حتى تلك التي كتبها إثر غزو النظام العراقي للكويت (أغسطس 1990)، فإنها بقيت في إطار الحدث العراقي. وهنا نجد إسماعيل فهد إسماعيل يقول: «أوّل مرّة شعرتُ أنني كويتي، مائة في المائة، كان في أوّل ساعة من الاحتلال». ولهذا كتب سباعية روائية أسماها «إحداثيات زمن العزلة» تناول فيها يوميات الاحتلال وما صاحبه من مقاومة وتبعات منشغلا بذلك بمشكلة عامة أدت إلى انتزاع الكثيرين من وطنهم. وهي إمكانية سردية إضافية ضمن الإمكانيات التي يقدمها إسماعيل للكتابة. ويبرز في هذه الإمكانية الرصد اليومي والتوثيق للأحداث وردود الأفعال عليها متداخلة مع ما تعيشه الشخصيات، عبر وسائل إعلامية مختلفة، تصبح معها قابلة أو مدعاة للتأمل والتحليل.

ما بقي هنا، في الحديث عن تجربة إسماعيل فهد إسماعيل وإمكانياته

السردية من خلال هذا المنحى، هو أهمية الإشارة إلى انشغال الكاتب بهاجس الشكل الفني للرواية منذ روايته الأولى «كانت السماء زرقاء» وواصل هذا الشغف في كثير من الروايات مثل«مسك»، «سماء نائية»، «عندما رأسك في طريق واسمك في طريق آخر» والتي تداخل فيها مع قصائد للشاعر قاسم حداد وصولا إلى رواياته الثلاث الأخيرة.

وفي هذه الروايات استفاد إسماعيل من تقنيات عدة كالتداعي وتعدد الأصوات والسرد بصوت واحد وتقطيع المشاهد واستخدام ضمير الغائب (هو) والمخاطب (أنت) وتداخل الأزمنة والسرد بطرق لغوية تركيبية عدة؛ وهو منحى بحاجة إلى قراءة أوسع.

هكذا، فإن إمكانية الرواية عند إسماعيل فهد إسماعيل هي إمكانية حياة، في أي وجهة مضت أو على أي حال كانت.

إسماعيل.. وعرس الرحيل

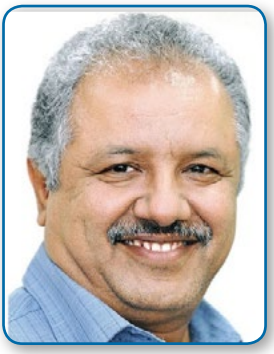

بقلم: د. غانم النجار *

لم يكن رحيل إسماعيل فهد إسماعيل عنا في سبتمبر الماضي (2018) رحيلا تقليديا، بل جاء وكأنه قد صاغ مساره وتفاصيله، كأنه جزء من رواية. فقبل رحيله بيومين اجتمعنا في "الملتقى الثقافي" احتفاءً بصدور الرواية الاخيرة لإسماعيل "صندوق أسود آخر". كنت أنوي الكتابة عن تلك الأمسية، وعن جمال وكرم المحتفى به، وكرمه، وروايته عن البدون، فجاء الخبر الصادم برحيله. لم أكن أتصور أبدا بأنه كان و كأنه قد جمعنا ليودعنا.

فهل اختار إسماعيل تلك الأمسية الاحتفالية بروايته الأخيرة كجزء غير ظاهر من نهاية الرواية، أم أن تلك الأمسية المفعمة بالحب والمحبين له ولإبداعه، قد اختارته، لقاء وداع. في أمسية عرس الرحيل، تمكنا من البوح بمشاعرنا علنا تجاهه. على المستوى الشخصي عبرت له عن امتناني على كرمه ومحبته. يقال، إن أحببتم فبوحوا بمشاعركم لمن تحبون، فقد يرحلون فجأة دون أن يعلموا عن تلك المشاعر. كم كان سعيدا جذلا، وكأنه يقول والآن آن أوان الرحيل.

مضيف الملتقى الأديب طالب الرفاعي ذكر في تقديمه أننا نلتقي مع الرواية الأخيرة لإسماعيل، اعترض أحد الحضور "لاتقل الرواية الأخيرة، بل قل آخر رواية". فاتضح لنا بعد يومين فقط أنها حقا كانت الرواية الأخيرة.

في أمسية عرس الرحيل، تم توزيع نسخ

* كاتب كويتي.

الرواية، ولم تتبق نسخة لي، فوعدوني بإرسال نسخة لي لاحقا، وبقيت نسخة د.ابتهال، المليئة بالتعليقات، فأخذها إسماعيل، وخط عليها إهداء لي سيبقى أيقونة. كان ذلك هو الإهداء الأخير.

مشروع إسماعيل فهد إسماعيل منذ زمن طويل، كان انتصارا للمهمشين، "يحنو عليهم" ويقدمهم على من عداهم من أصحاب النفوذ والسطوة ويشخصنهم ويجد لهم التبريرات. وهكذا كانت روايته الأخيرة عن مهمشي الكويت، البدون، الذين يتفاخر بعض أصحاب النفوذ والسطوة عندنا بقهرهم، ويستمتعون بمعاناتهم بسادية محزنة. لماذا يفرح بعض أصحاب السلطة والنفوذ بقهر الضعفاء مع أن القوة بيدهم؟

عرفت إسماعيل ككاتب، على الورق، قبل أن أعرفه كشخص، منذ روايته الأشهر "كانت السماء زرقاء" في السبعينيات وماتلاها. كان محللا ومشخصا الأبعاد الإنسانية للبشر، مبحرا فيها، بأسلوبه الرشيق المميز، منتصرا للمظلوم، محترما عقلك، محترما ذاته. توطدت علاقتنا وتعمقت خلال فترة

الغزو، فكانت محطته خلية نحل، وكنا نتبادل الأفكار والرؤى والآراء، لكيفية التصدي للغزاة، و لما بعد الغزو. سألته ذات مرة "ذكرت في روايتك السباعية عن الغزو تفاصيل كثيرة لأحاديث جرت بيننا، كنت قد نسيتها، فهل هي الذاكرة الفولاذية" ابتسم،واخرج القلم ملوحا به، وقال "بل كنت أدون كل شيء، ما إن ينتهي اللقاء بيننا، أسجل مادار، وأحتفظ به، لأني كنت أرى فيك مشروع رواية، وأكثر، وهذا ماحدث". فاجأني، صمتُّ، ولم أعقب. "على طريقة إسماعيل". وبالتالي جاءت الرواية التسجيلية "إحداثيات زمن العزلة" كأكبر وأهم عمل روائي عن الغزو مما يحق لنا أن نطلق على إسماعيل صفة أديب المقاومة ضمن صفات أخرى.

عبر حقب متتالية كانت تصلني منه روايات قبل النشر كمخطوطات لإبداء الرأي، وبالذات في الجانب المعلوماتي، فقد كان إسماعيل، حريصا، دقيقا في مايكتب. اختلفنا أحيانا، ولكنه كان خلافا على شاكلة الخلاف بين غيمة كبرى ظليلة، كإسماعيل وغيمة صغرى على أين سيهبط المطر.

عندما يرحل كاتب وأديب بقامة إسماعيل فهد إسماعيل، فهو يرحل عنا بجسده، إلا أنه باق معنا برواياته وفكره الإنساني. كما أنه باق بجيل مبدع من الشباب الكتاب الذي كان إسماعيل لهم أبا حقيقيا وهو ماتردد، في تلك الأمسية الوداعية، حفلة عرس الرحيل.

في تلك الأمسية استثارتني فكرة كتابة إسماعيل فهد إسماعيل جزء ثان لروايته "في حضرة العنقاء والخل الوفي" والتي دخل فيها أبوفهد للمرة الثانية محطة غائرة كموضوع البدون. لماذا جزء ثان؟ أجاب، لا أعلم، استهواني الموضوع، أو لبسني ولبسته.

بدورها قدمت د.ابتهال الخطيب، أطروحة نقدية في الرواية، أبدعت واستفزت إسماعيل فكريا. لم تتحفز كعادتها، عندما يذكر موضوع البدون، بل ارتكزت على أداء أكاديمي رصين، ففتحت الشهية لمزيد من العمق في الرؤية، واستثارة للحاضرين، الذين اعتادوا المباشرة في الطرح، هذه المرة كانت مختلفة، ربما الدم الأكاديمي البارد، الذي نتقنه في مثل هذه المحطات.

أبدى إسماعيل إعجابا في ماطرحته ابتهال، "فاجأتني بقراءتها للرواية واكتشافها لقضايا أكثر مما توقعت أو قصدت". في الكثير من الأحوال، هناك

من يكتب وهناك من يكذب، والكاتب الصادق، ينسى صدقه، لأنه لايتصنعه، فهو جزء من ممارسته الطبيعية، وسلوكه الاعتيادي، أما الكاتب المتصنع، "فأمره أمر" حسب لميعة عباس عمارة، وهو يدرك جيدا أين كذب. إسماعيل هو كاتب صادق، لايدرك صدقه، ولايتصنعه، الفكرة تجرك أحيانا إلى محطات غير معلومة، حتى لك ككاتب، ربما اتضح ذلك في فقرات "حذف بمعرفة الرقيب".

الأجواء كانت حميمية، أكثر منها أدبية أو فنية، والحضور كان يعاني من حب معلن لإسماعيل، فاق الظروف العادية، عدد من الشباب المبدعين عبروا عن ذلك الحب صراحة ودون مواربة وبحشرجة وبدموع أو شبه دموع. من جانبي، كنت أرى ولازلت إسماعيل جميلاً، يذكرك بما نسيت أحيانا، وينسيك ويسرح بك حيث لاتدري أحيانا أخرى.

إبان الغزو كان يتعامل مع ذلك الواقع البائس وكأنه يكتب رواية، لم أكن أعلم ذلك، على الرغم من لقاءاتنا المتكررة في ظروف بالغة الخطورة، "الحذر ضروري، والمسؤولية الملقاة على عاتقنا كبيرة". كان يسجل كل صغيرة وكبيرة، لكل حدث، ولكل شخص. علمت ذلك لاحقا، لا أظن أن أحدا منا فكر في ذلك، ولكن هذا هو إسماعيل لاغيره. وبعد التحرير اتصل بي ذات مرة من خارج الكويت، حيث قضى سنوات يحرث أوراق ويوميات سجلها، ليحدثني عن مشروعه العظيم عن الغزو. هي رواية تسجيلية أو السباعية بعنوان لافت "إحداثيات زمن العزلة" لتكون سفرا جامعا لتجربتنا خلال الغزو. بلحظاته، بتفاصيله التي عايشناها سويا بدقة وروح إسماعيل المتحركة.

أمسية زادها جمالا الحضور الملتزم والمحب لفن إسماعيل، بداية طيبة للملتقى الثقافي، وخالص الشكر لطالب الرفاعي وعائلته الكريمة.

تمت الأمسية يوم الأحد ٢٣ سبتمبر وبعد أقل من يومين، جاءنا الخبر الصادم برحيل إسماعيل، وكأنه قد خطط للرحيل، وكأنه قد نسج نهاية الرواية عن البدون، بعذاباتهم الظاهرة والمستترة، وكأنها كانت أمسية لعرس الرحيل، وسط الأصدقاء والمحبين. ومع أن الموت حق، ولاراد لقضاء الله، إلا أنني، لأمر ما، لا أشعر، بأن إسماعيل قد رحل عنا، فحضوره في الذهن كما حضوره في المشاعر، والحضور في الذهن ربما أكثر تركيزا وعمقا.

إسماعيل.. طرح النقد عليه

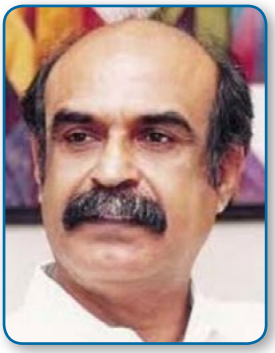

بقلم: قاسم حداد *

١

الحق أنني تعبتُ من رثاء الأصدقاء، أرقبهم وهم يذهبون، وفي هذا عقابٌ، لا يحتمل، على الاستمرار في العيش. كلما رحل صديقٌ ماتَ جزءٌ مني، لكأني لن أكون موجوداً عندما يدركني الموت. نستحق ذلك.

٢

منذ تعرفتُ عليه، أوائل السبعينات، كان إسماعيل سمة بالغة الدلالة لكل زيارة أقوم بها للكويت. وكلما التقيت به شدّ من أزري وهمس لي قائلاً بروح دعابته الحميمة: «لا تحاول، لن تموت قبلي».

حسبته يمازحني ويجامل خيانات الجسد، حسب تعبير (ممدوح عدوان). لكنه كان يعرف أنه يكنز الصداقات لئلا يذهب فقير الوفاض.

٣

شبابه الجوهري يجعل أجيالاً مختلفة تنجذب لمجاورته، حتى إنه، عندما بدأ تجمّع اللقاءات الثقافية الأهلية في الكويت في الانفراط، كان الجميع يتوازعونه لملتقياتهم بحبٍ يليق به وبهم جميعاً، وكان يحسن الاحتفاظ بالمسافة الرحيمة لكل الأصدقاء، تلك ميزة أسس لها في كويتٍ ثقافيٍ يقترح أشكال الفعاليات على عموم المنطقة بلا هوادة.

* كاتب بحريني.

٤

في أوائل السبعينيات، كان إسماعيل يقول: «(كانت) السماء زرقاء»، فماذا سيقول الآن فيما يكتب نصوصه حتى الأيام الأخيرة قبل رحيله؟

التحديقة الصارمة التي صوّبها إسماعيل على الحياة جعلته واقعياً على طريقته. بمعزل عن توصيفات الأدب ونقده، يجوز لي الزعم أن إسماعيل أراد الإحاطة بالواقع بشتى أشكال الكتابة بولع ظاهر.

فبالإضافة إلى الرواية، شكل تنفسه الرئيسي، فهو كتب السرد النقدي والمسرح والقصة القصيرة والسيرة الشخصية الأدبية والإحداثيات الكبيرة الفخمة، وهو أيضاً كتب سيناريو دراما التلفزيون، ولَم يتأخر عن المقالة عندما يستدعي الأمر ذلك. هذا التنوع الغزير يضع تجربته في مقدمة المواهب الباحثة عن معنى الحياة.

٥

لم يتردد في لحظة الاختيار : ضد العسف مع الحرية. هذا الموقف هو ظهير كتابته وأدبه.

لذلك يمكننا الثقة أنه لم يزل يسهم في صقل الموقف الإنساني الذي ظل الأدب يذهب إليه طوال التاريخ البشري. الكلمة / الحرية.

هذا هو الدرس الذي تقدر الأجيال، التي صادقت إسماعيل فهد إسماعيل، على تثمينه والاعتداد به وطرح النقد المتجدد عليه.

في غياب الخل الوفي

كيف ألملم نفسي المبعثرة بعد هذه الفجيعة. وكيف سأحْسرُ هذا الوجع الأليم الذي أعرف أنه سيبقى حتى أموت، كيف؟ أرثيك وأنا التي ما حسبتُ أن يأتي يوماً وتعصف في قلبي رياح فراقك الأبديّ. دعوات كثيرة إلى منصّات الحزن دعتني لأقول عنك ولو كلمة، كيف أقول؟ وماذا أقول؟ تعجز الكلمات مهما أمطرت معانيها أن تعبّر عما أحمله في قلبي من حب كبير لا يخجل القلب أن يعترف به.

بقلم: ليلى العثمان *

لم أتماسك بعد يا إسماعيل فالكلام ثقيل لا تنطق به الروح ولا اللسان.

البارحة تسلّلتَ إلى نومي، نظرتَ إليّ بعينيك الزرقاوين كان فيهما الحزن والعتب: هل أصدّق يا ليلى أنك عجزت عن كلمة في رثائي كما فعل كل أصدقائي وأحبائي وكل من عرفني وأحبني؟.

أنا يا إسماعيل؟ أنت تعرف أنني لا أستطيع غير البكاء وأنا لا أكاد أصدّق أن الموت تجرّأ واختطفك مني ومنّا جميعا، إنه اليُتْم الحقيقي الذي لم

* كاتبة كويتية.

أحسّه بعد موت أمي وأبي وأحباب وأصدقاء كثر. يا وجعي يا إسماعيل بعد فراقك وجع كالمدْية سيظلّ غائصاً في قلبي حتى أموت.

هل تعلم يا إسماعيل كم أنا حزينة ونادمة أنني سافرت دون أن أودعك، كانت آخر مكالمة قصيرة يوم السبت لأعتذر أنني لن أحضر ليلة ملتقى الأحد المقامة للاحتفال بروايتك الأخيرة. جلْجلتْ ضحكتك وقلتَ: سافري يا جميلتي (هكذا كان يخاطبني دائماً) سنلتقي في أمسيات أخرى.

وسافرت. وجاءني ذلك الحلم قبل وفاتك بيوم.

❑ ❑ ❑

رأيتني وحيدة أمشي في مكان مهجور معتم تنتشر فيه الصخور وجذوع أشجار عارية وسعف نخيل يابس، مشيت خائفة من الفراغ فلمحت قبراً مفتوحاً رطباً خالياً ورأيت حمامة بيضاء صغيرة معلقة فوق القبر لا تحط ولا تطير ولا تأتي بأي حركة. فزعتُ وصحوتُ وقلبي

يرتجف رجفات لا تهدأ وبدأ تشاؤمي! ترى من سيموت؟ عسى ألا يكون أحد من أولادي، لم يخطر ببالي أنك أنت من سيموت، لقد كان القبر قبرك، والحمامة روحك المعلقة بين الأرض والسماء.

في الصباح ونحن في صالة المؤتمر رنّ الهاتف وعادة لا أرد لكني نظرت إلى شاشة الهاتف كان المتصل أبو مازن (الكاتب محمد جواد) ثم اتصال مرّتين من صديقتي بروانة (زوجته سابقاً). تطالبني صديقتي ثريا البقصمي بالرد، قلت لن أرد، هذا بالتأكيد خبر سيئ عن إسماعيل ربما هو في المستشفى بحالة خطرة لكن قلبي كان يحدس بغير ذلك. أحاول أن أزيح الفكرة المشؤومة وأبرر لنفسي أنه في السنوات الأخيرة كثيراً ما يدخل ويخرج سالماً. أغلقت الهاتف كي لا أسمع خبراً يسوؤني. في الرابعة صعدت إلى غرفتي وفتحت الهاتف وصعقني الخبر وتوالت عليّ الأسماء التي تعزيني بك.

آه يا إسماعيل كيف تموت وأنا بعيدة؟. قرّرت أن أترك المؤتمر وأعود لأراك حتى وإن كنت في ثلاجة الموتى قبل دفنك لكن لم أجد إلا رحلة متأخرة ووصلت الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل. لم أفقد الأمل اتصلت بأبي مازن باكراً ورجوته أن يأخذني إليك فقال إن الأمر صعب فقد غسلوك وكفنوك. آخ يا خيبة أملي، ترحل دون أن أراك وأقبلك قبلات الوداع وأهمس لك إنني أحببتك طول عمري وسأظل.

مُتّ يا إسماعيل.. يامن كنت لي شمساً وظلاً. مُتّ يا من كنت خيمتي التي أفر إليها بفرحي وحزني وأسراري التي لا يعرفها أحد سواك. فَلِمَنْ أفر الآن؟.

أحببت إسماعيل، صادقته وبارك زوجي وليد صداقتنا، صار ثالثنا الذي نتنفّس أمامه حتى مشاكلنا الصغيرة، فتحتُ عقلي له، لنصائحه، لتوجيهاته الثرية، فتحتُ قلبي لكاتب عنيد جميل حنون. لم أشعر يوماً أن بيني وبينه حواجز من أي نوع، صار بالنسبة لي

الصديق والحبيب. لا يبدد الحزن والجروح إلا هو. في وجهه ألمح نضارة الدنيا أسقط على صدره الضئيل بأثقالي فأحسّني تجاوزت بقاع الأرض وحططتُ في غيمة دافئة.

وحده إسماعيل يعرف ليلى، اهتمّ بي كإنسانة فأحبني بكل متناقضاتي، واهتم بي أديبة وكاتبة، قرأني وظل يتابعني، نصح فقسى، غضب وصادر بعض نزقي في الكتابة، كنتُ أخضع مرّات للمصادرة ومرّات قليلة كنت أتمرد عليه فلا يكره تمرّدي، كان إسماعيل ملاذي، حين أفرح يفرح لي وحين أتعب يُفرد لي فراش الراحة ولا يقترب منه حفاظاً على صداقتنا المثالية.

أحببتُ إسماعيل ذلك الحب الذي لا توجد له تفاسير في معاجم الكتب، حب لا شكل له ولا لون لكن طعمه صافٍ بلا شوائب، هذا الحب غير المُصنّف في أيّ خانة من خانات الحب، كانت له فرادته وعُمقه رغم ذلك لم نكن نسعى لبناء مؤسّسة فاشلة (مؤسسة الزواج)

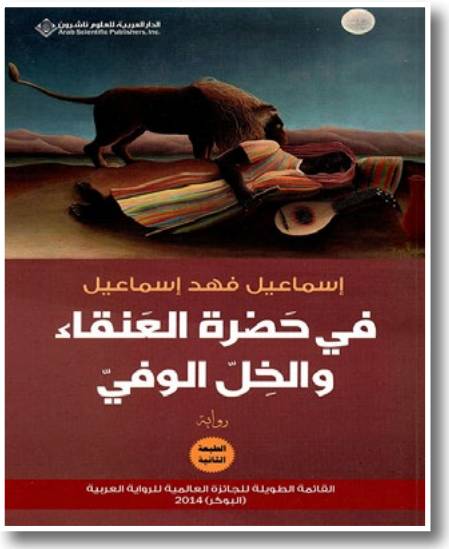

التي بالتأكيد كانت ستدمر الحب. وكنت دائماً أخاف أن يغادرني.

وها هو قد غادر وحيداً وتركني وحيدة وما تصورت أن يأتي اليوم الذي سأرثيه فيه وأبكيه بكاءً كالعويل وسأبقى أبكيه حتى ألحق به.

سأظل أحبه ذلك الحب الذي لم تخدشه شوكة، وسأظل أراه في أحلامي وفي كل وجه من وجوه الذين أحببناهم معاً وسأفتح دفاتر ذكرياتي وألبومات صوري لأتذكره وأراه كلّما جَنّ بي الشوق إليه.

كان رفيق سفر مريح، أذكر رحلتي معه إلى الفلبين كانت الرحلة طويلة ونحن في الدرجة الثانية وحين وصلنا إلى شقته الأنيقة قلت له احجز لي طريق العودة بالدرجة الأولى. بقيت معه عشرة أيام من أجمل أيام عمري.

كان يعشق السينما وكنت لا أحبها وأرفض أن أصحبه، قلت له اذهب وحدك، لكنه يرفض بشدّة أن يتركني وحدي. لقد حرمته من هوايته وكان يسهر في الليل على أفلام التلفزيون.

سافرت قبله، أوصلني إلى المطار، دخلت بعد أن ودعته وأنا كالبلهاء أقف في صفوف الدرجة الثانية والطابور طويل ومزدحم، وفجأة سمعت صوته بقربي فلم أتمالك وبكيت وسألته: كيف دخلت؟ قال دبرت الأمر مع الضابط حين رأيتك تقفين في صفوف الدرجة الثانية وأنت في الأولى، أخذني من يدي وهو يضحك من غبائي ضحكته العالية المعهودة احتضنته وشكرته وتفارقنا.

عشرة أيام لم يترك مكاناً إلا وأخذني إليه حتى البحر الذي كان بعيداً عن سكنه لأنه كان يعرف أنني أحب صديقي البحر. قضينا الوقت نكتب ونقرأ ونتجول ونجلس في المقاهي لنستلذ بأكل (الهولوهولو) والآيس كريم. نضحك من القلب ونستعيد ذكريات حلوة ونغني الأغاني العراقية القديمة التي نحبها.

سافرت معه ومع صديقنا الروائي طالب الرفاعي أكثر من سفرة إلى مصر ودمشق زرنا أصدقاءنا، زرنا حلب التي عشقناها ودعانا الشاعر نزيه أبو عفش إلى بلدته صافيتا وكم كانت الرحلة ممتعة وهنيّة لا تُنسى. ذكريات كثيرة موشومة في القلب وتلافيف الذاكرة وألبومات الصور.

يا إسماعيل: مع من سأسافر من بعدك وأيّ سفر ستكون له لذة بغير وجودك؟ ولمن أشتري الأفيال التي كنتَ تُحبها وأحمل بعضها إليك ولمن سأقدم الحلوى ومع من سأشرب القهوة المُرّة والشاي بلا سكر؟.

❑ ❑ ❑

في إحدى لقاءاتي الأخيرة معه قال لي: قررت أن أهاجر إلى تايلند سأشتري بيتاً هناك وسأستقبلك فيه. لكنه هاجر إلى حيث لن يعود وترك لي الوجع. وحتى هذه اللحظة التي أكتب فيها عنه تقهرني دموعي.

وداعاً يا أغلى الناس. وداعاً يا زرقة عينيك الصافيتين كالبحر والسماء. وداعاً يا قلبك الذي أحبني، وداعاً يا حبيب القلب.

صَدَمات ومُعادَلات
في تجربة إسماعيل فهد إسماعيل الروائية

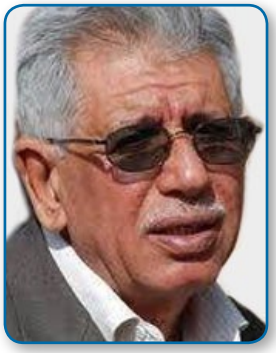

بقلم: محمد خضير *

يضعنا التصنيف الواسع لروايات إسماعيل فهد إسماعيل أمام مهمة عسيرة لاستجلاء الأثر الباقي من اختراعاته الشكلية وموضوعاته الإشكالية. فكاتبها روائيّ من الطليعة المجرِّبة، وشاهدُ عصرٍ مخضرَم، لم يحِد نظرُهُ وإحساسُه عن قضايا أمته وبلاده، ولم يهادن بمواقفه وكتابته متغيرات عصره، بل أنّ ذاكرته الحية أعادت إنتاج الحوادث الرئيسة التي غطّاها التاريخ العربي بدخان حروبه ودسائسه، وزادت على ذلك إضاءة الحياة الشخصية للفاعلين الهامشيين، بأسمائها الحقيقية والمستعارة.

مهما كانت قراءتنا استرجاعيةً على أساس (الاختلاف والمغايرة)، واحتفائية، إلا أننا لا نستطيع إغفال والنفاذ إلى آلياتها الداخلية في الإشارة إلى الاستراتيجية السردية رواياته. نبعت هذه الاستراتيجية – لإسماعيل فهد إسماعيل القائمة كما شرحها الروائي إسماعيل فهد

* كاتب عراقي.

إسماعيل في حديث مطوّل مع طالب الرفاعي – من ((الإحساس بالتحدّي والرغبة بالتغيّر وبتأمل الحياة والمجتمع والذات)). وقد حكمت هذه الاستراتيجية أعمال إسماعيل الروائية كلها، ووجّهت موضوعاتها وبناها الفنية في مختلف المراحل وتقاطع الأزمنة والأمكنة، وتعدُّد الشخصيات والهويات واللغات. كما أثبتت هذه الاستراتيجية قوتها وصلابتها أمام أكبر صدمتين تاريخيتين، اعترضتا تجربته الروائية: صدمة العرب في حرب حزيران 1967، وصدمة احتلال الجيش العراقي للكويت العام 1990. أما التجلّي البنائي لهذه الاستراتيجية فيتمثل في الاختزال اللغوي، والتقطيع السينمائي، والتمشهّد المسرحي، وحوار الشخصيات الباطني المنفرد والثنائي. وقد لا نضيف جديداً لرأي النقاد العرب في المزايا الفكرية والجمالية لروايات إسماعيل فهد إسماعيل، إلا أننا لا بدّ أن نشير إلى سعة الخبرة التاريخية والتقنية التي صدرت عنها، واحتلالها مركزاً مرموقاً بين السرديات العربية الحديثة.

بموجب الاستراتيجية البنائية الآنفة الذكر، نستطيع أن نصنّف أعمال إسماعيل فهد إسماعيل الروائية، بحسب علاقتها المرحلية والمكانية، في صنفين رئيسيين:

– روايات صدمة التحدي والتغيير.

– روايات صدمة الاحتلال والعزلة.

إنّ هذا التصنيف يساعدنا على الدخول إلى المحتوى الحقيقي للاستراتيجية الروائية التي اعتمدها إسماعيل في تأليف رواياته، كما يضعنا أمام ظاهرة التمزق الأيديولوجي لهويات أبطاله، في زمنين متقابلين ومتعاقبين، وفي أكثر من مكان جغرافي. سنلاحظ أن الصنف الأول (التحدي والتغيير) الذي يضم الرباعية العراقية الأولى، والثلاثية العربية المعنونة بنهر النيل، إضافة إلى روايات منفردة أخرى،

تحقق رؤيتها الاستراتيجية بهوية قومية وأيديولوجية موحدة، قبل أن تنشرخ هذه وتغترب لإنجاز الصنف الثاني (روايات الاحتلال والعزلة) وأشهرها (سباعية إحداثيات زمن العزلة) و(في حضرة العنقاء والخل الوفي) و(طيور التاجي).

لم يكن هذا التصنيف قدراً تاريخياً مفروضاً على الروائي، ومسلّطاً على هويات أبطاله، في أزمنة قاهرة وأمكنة متعددة (البصرة، الكويت، بغداد، بيروت، القاهرة، الفلبين)، ذلك لأن هذا التصنيف ـــ باعتقادي ـــ يتفق تماماً مع الممارسة الأيديولوجية الأساسية والخبرة الجمالية اللتين اكتسبهما الروائي في وقت سابق للصدمتين الكبريين. فقد أفاق إسماعيل في زمن مبكر على انهيار الآمال الثورية لقوى المجتمع الوطنية، وكان شاهداً قريباً على صعود العقليات الشمولية للعسكرتاريا العربية، وضمور القضايا القومية والمنظمات المرتبطة بها، فأصبح محكوماً بالاغتراب الفكري والاجتماعي، ومصدوماً بالانسلاخ الوطني والقومي، ثم متأملاً للانقسام الشعوري الباطني، الذي هزَّ أعماق أبطاله المغتربين ودفعهم للبحث عن لغة جديدة للتعبير عن الرؤى المفتوحة على التغيير، وشعرية الذات اللامنتمية.

تمزّقت الذات المنتمية، عندما شهدت الحقيقة المؤلمة لسقوط التاريخ الجماعي، فاتجهت إلى (أرخنة الذات وتذويت التاريخ) بمعادلة الدكتور مرسل فالح العجمي؛ أو (تآلف المتضادات وتضاد المتآلفات) حسب تعبيرنا. وهي معادلة تساوي في رأينا أيضاً: انفصام الذات وانسلاخ الهوية، في شخصية (البدون) التي اختارها إسماعيل لروايته (في حضرة العنقاء والخل الوفي) الصادرة في العام 2013. ولعلّ العمل الروائي السابق الصادر

العام 2011 بعنوان (عندما رأسك في طريق واسمك في طريق أخرى) قد أسرف في تجريب التيار الشعوري الجارف للذات المنقسمة على نفسها -الذات المنتمية والذات المتأملة- وظلّ يرنو إلى تحقيق المصالحة المنشودة بينهما، حتى أدركها في رواية متأخرة هي (السبيليّات).

من الواضح إن روح التحدي والتمرد، نمتْ ببطء وثبات في شخصية المؤلف السارد، ارتداداً على نشأة عائلية قاسية، وقمع اجتماعي سلطوي شديد. كما أن سرديته اكتسبت ذوقاً جمالياً مسرحياً وسينمائياً، في زمن «المقهى» الحميم، قبل أن توضَع في وجه التحديات واللجوء خارج الحدود/ إلى بلد ثان. وقد انعكس هذا الذوق أولاً في مجموعتيه القصصيتين (البقعة الداكنة) و(الأقفاص واللغة المشتركة) قبل انتقاله إلى الشكل الروائي. تحولت «اللغة المشتركة» في القصص القصيرة إلى تعبير روائيّ غاية في الاتساع، والدلالة على تأمل الذات الناضجة، ووعي هويتها المرتحِلة، عبر تجريب اللغة المسترسِلة في زمانها ومكانها الجديد: الكويت.

سيطرت طريقة التداعي الحر (المونولوج الداخلي) على أغلب روايات إسماعيل فهد إسماعيل وتحكمت في ذوقه السردي، بفعل التمرد والقلق والحلم بمكان بديل، والاستجابة المباشرة لتأثير السينما والمسرح والفن التشكيلي. (صرح إسماعيل بهذا التأثير في حديثه المطوَّل إلى طالب الرفاعي). أفضت الأزمةُ الشعورية الداخلية للبطل المنقسِم، ورغبة الذات في الخروج من دائرة (الأقفاص المشتركة) إلى استعمال أسلوب التداعي الحر، والاستعانة بالأحلام السينمائية للخروج إلى فضاء التجربة المحوطة بالأخطار والمصائر المنفردة. وسادَ هذا الشعور

الباطني روايات المرحلة الأولى (التحدي والتغيير) أكثر من غيرها. إلا أنني أعتقد بأنّ زمن الأحلام الأبيض والأسود، قد وجد امتداده في أكثر من مكان حقّقت الهويةُ خلاله وجودَها الأمثل، وراء مرحلة الانقسام والعزلة.

انفصل إسماعيل فهد إسماعيل عن نسق الاستراتيجيات التاريخية، والتحق بنسق الذات المتأملة شعورَها المغترب عن المكان الثابت، والهوية الأيديولوجية المتصلبة. وظلّ «يحلم» بمعادلة تعيد الانسجام والاتصال بين أزمنته الشخصية وضمائرها المتحاورة داخلياً، وراء تداعيات ربيعه المبكر. لكنّ هذا الحلم سيكرر مرة بعد أخرى ذلك الشعور القلق بعدم الاستقرار والتلاؤم. وأظنّ أنّ معادلته الاستراتيجية ارتطمت على الدوام بقلق الهوية المغتربة اجتماعياً وأيديولوجياً: «ماذا نكتب، وكيف نكتب، وأين نكتب» خاصة بعد غزو الكويت واندلاع ثورات الربيع العربي.

كان الراحل إسماعيل فهد إسماعيل قد استوفى معظم مراحل استراتيجيته الروائية، عندما دهمه الموت؛ وبقي على قرائه أن يستعيدوا تلك المراحل ويعيدوا اكتشافها، في ضوء متغيرات المشهد الروائي العربي واتساع رؤيته الكونية لقضايا العصر. ولعل مهمة النقد أن يشير بقوة إلى أهم اختراعين ينسبان إلى الراحل هما: اختراع السلاسل الروائية، وإدخال تقنية تيار الوعي (التداعي الحر للشعور) إلى الرواية العربية، خلال وقت مبكر من ستينيات القرن العشرين الماضية.

بعد سنوات من التجريب والمعاناة، يمكننا أخيراً، تحديد الجانب الفني في استراتيجية الروائي إسماعيل فهد إسماعيل، ونمثل للجانب الثيماتي منها بالسلاسل الأربع التالية:

- روايات الصدمة والتحدي (الرباعية

العراقية الأولى: كانت السماء زرقاء، المستنقعات الضوئية، الحبل، الضفاف الأخرى).

- روايات الاحتلال والمقاومة (الروايات الفلسطينية وسباعية إحداثيات زمن العزلة).
- روايات الشخصيات الإشكالية (روايات حنظلة وابن لعبون).
- روايات تصالح الذات والمكان (رواية السبيليات).

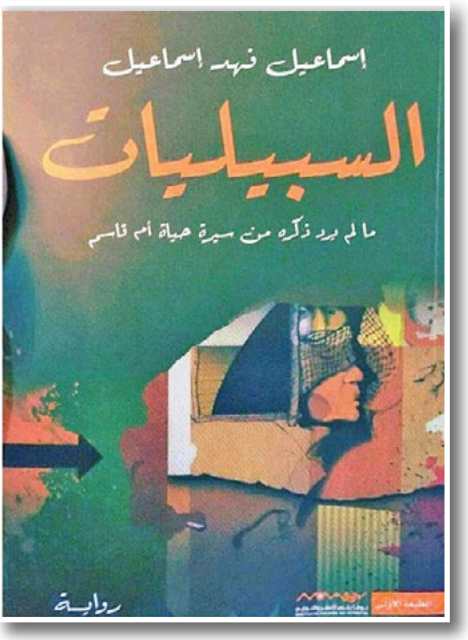

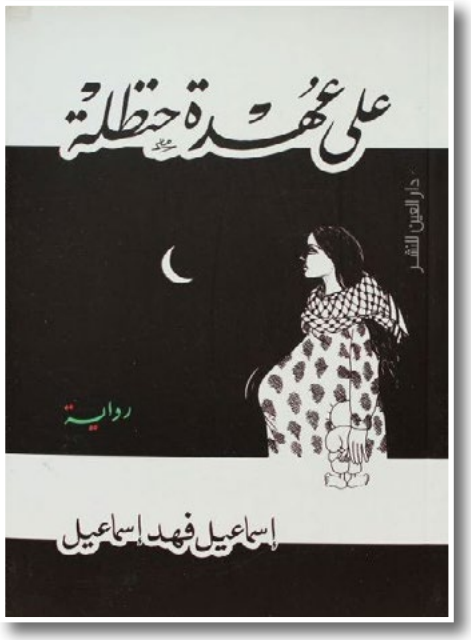

برازخ في العالم الروائي لإسماعيل فهد إسماعيل

بقلم: نبيل سليمان *

لا أزال أذكر أنني ما إن انتهيت من قراءة الرواية الأولى لإسماعيل فهد إسماعيل (كانت السماء زرقاء) حتى هتفت: هذه الرواية مثل غَزْل البنات. وغَزْل . بتسكين الزاي . البنات: حلوى ملونة، خفيفة كالنسمة، ولا تكاد تلامس الحلق حتى تذوب وجُداً وقطراً ولذة. ولئن أكدت من بعد رواية (المستنقعات الضوئية) ذلك الانطباع، فقد أقلقتني بشخصية حميدة، ذلك المثقف الذي يتقن استخدام السكين، والذي ستجعله المصادفة قاتلاً، إذ يلبي استغاثة المرأة التي يذبحها شقيقاها، فيقتلهما. ولن أنسى أن هذه الرواية، كسابقتها، قد دغدغت ما كنت أنطوي عليه من الوجودية التي شرعت تتمركس أو تفسح للماركسية، بعيد تخرجي من الجامعة عام 1967.

وسوف تتكرر الدغدغة، وإن بدرجة أدنى أو مختلفة، لدى قراءتي لتمام رباعية إسماعيل بروايتي (الحبل) و(الضفاف الأخرى) وما تلاها في سبعينيات القرن الماضي. بيد أن ما هو أهم من تلك

* كاتب سوري.

الدغدغة، كان قد راح يشغلني في روايات إسماعيل، وأول ذلك هو بناء المشهد من مفردات، يندر أن تكون أفعالاً أو أن تشكل جملاً. ومن ذلك في رواية (الحبل) هذا المثال: «حدوة الحصان. النجار. المسامير. أمه. أبوه. الحبل. الخشبة الناتئة. الصعود. النزول. الدم. وجه أمه الملطخ بدماء كفه» وكذلك: «العمل. الشرطة الكويتية. الشرطة العراقية. الحبل. المأجور. العرق. الحارس. رأس. الجامعة. التقاعد. المال السجن». وسوف يغدو هذا (اللعب) علامة فارقة لكتابة إسماعيل الروائية، وحيث تؤدي اللعبة مهمة أو أكثر، فهي ترمي بالمفردات التي تعنون ما سيدور في المشهد التالي أو الفقرة التالية أو الفصل التالي من أحداث أو حوار، أو ما سيمور من مشاعر. تلك مهمة أولى، وثمة مهمة ثانية تتمثل في أن تلخص المفردات ما سبق أن دار أو مار. وقد يكون على اللعبة أن تنهض بالمهمتين الأولى والثانية معاً.

إلى ذلك سيدمن إسماعيل فهد إسماعيل تصدير روايته بملاحظة أو مقدمة أو إشارة أو كلمة. ففي صدر رواية (الحبل) تحدد الملاحظة الأولى «أن الأحداث تدور عام 1962»، بينما تنصّ الثانية على أنه «من أجل زيادة الإيضاح ارتأينا أن نكتب السرد بحروف بارزة، أما الحوار والتداعي فقد كتب بحروف عادية». والكاتب بذلك يسلك مسلك غسان كنفاني وعبد الرحمن مجيد الربيعي وغادة السمان... أي مسلك الموضة التي درجت آنئذٍ بالتمييز طباعياً بين مستويات الكتابة، والعناية بخاصة بمستوى اللاوعي أو اللاشعور أو التداعي توخياً للحداثة وجرياً على نهج فوكنر وأضرابه. ومما يسجل لإسماعيل فهد إسماعيل منذ رواية (الضفاف الأخرى ـ 1973) ملاعبته للضمائر الثلاثة (المتكلم ـ المخاطب ـ الغائب) معاً في المقطع السردي الواحد. على أن آخرين سيلعبون هذه اللعبة، كما سيلعبون لعبة الحروف البارزة والحروف العادية في طباعة

الرواية. غير أن اجتماع هاتين اللعبتين مع لعبة بناء المشهد من مفردات، هو ما سيبدأ برسم الحداثة الخاصة بروايات إسماعيل فهد إسماعيل، وهو ما سيتعزز بلعبة أخرى فأخرى كما سنرى، فإذا بالعالم الروائي لإسماعيل فهد إسماعيل ينهض مدماكاً فمدماكاً، ورواية فرواية، وفي مركزه ذلك الفرد المثقف اليساري المناضل في حزب سري أو منظمة سرية. وقد كان إسماعيل بهذا وحده يبهرني كما يبهر جيلي ممن صدعت هزيمة حزيران ـ يونيو 1967 (ريعان شبابهم)، فكيف إذا أضفنا غواية إسماعيل الحداثية لمن كان مثلي يخطو خطاه الأولى على درب كتابة الرواية؟

❑ ❑ ❑

إذا كان العراق يبدو فضاءً روائياً أثيراً لإسماعيل فهد إسماعيل، ومنذ البداية، فالكاتب سيدأب على تنويع هذا الفضاء، فإذا لبيروت حصتها (رواية الشياح) وإذا بمصر تنافس الكويت على حصة أكبر، وإذا بالفضاء الفلسطيني المندغم بالفضائين اللبناني والمصري، يحضر متقداً في رواية (النيل الطعم والرائحة) ومخاطباً يومنا السياسي فيما صورت الرواية من الإرهاب والاغتيال والديكتاتورية، وبالإرهاب الحداثي دوماً.

إلى أبعد مما تقدم في رواية (النيل الطعم والرائحة) تذهب رواية (النيل يجري شمالاً: النواطير)، وذلك في لعبة التناص مع الجبرتي الذي تلقبه الرواية بمؤرخ الشعب، كما تلقب مراد بك ببطل الشعب. وقد نصّ الكاتب في مستهل الرواية على أنه «تشبثاً بالأمانة ومنعاً للالتباس، وبما أن الجبرتي شارك ـ مرغماً ـ في كتابة هذه الرواية، فقد جرى الاتفاق على أن يوضع كلامه بين هلالين تمييزاً له عما عداه: ونشداناً لتفاصيل دقيقة أغفل الجبرتي ذكرها، اقتضى الرجوع إلى المستشرق لوتسكي في كتابه الهادف (تاريخ الأقطار العربية الحديث)».

في لعبة أخرى مع التاريخ تشبك بينه وبين الراهن، تمضي رواية إسماعيل فهد إسماعيل (الكائن الظل) إلى أخبار اللصوص وأشعارهم في الأدب العربي القديم، فيستل مثلاً قصة حمدون بن حمدي اللص البغدادي الذي قُتِلَ توسيطاً، ولتتابع ما كان قد توقف من مشروع زواجه جراء غدر صاحب الشرطة به والإجهاز عليه. وقد أدركت هذه اللعبة للغة الرواية تعددها، وإن يكن بدرجة أدنى مما تحقق في رواية (النيل يجري شمالاً: النواطير)، بينما يضارع التعدد اللغوي في رواية (يحدث أمس) ما تحقق منه في هذه الرواية.

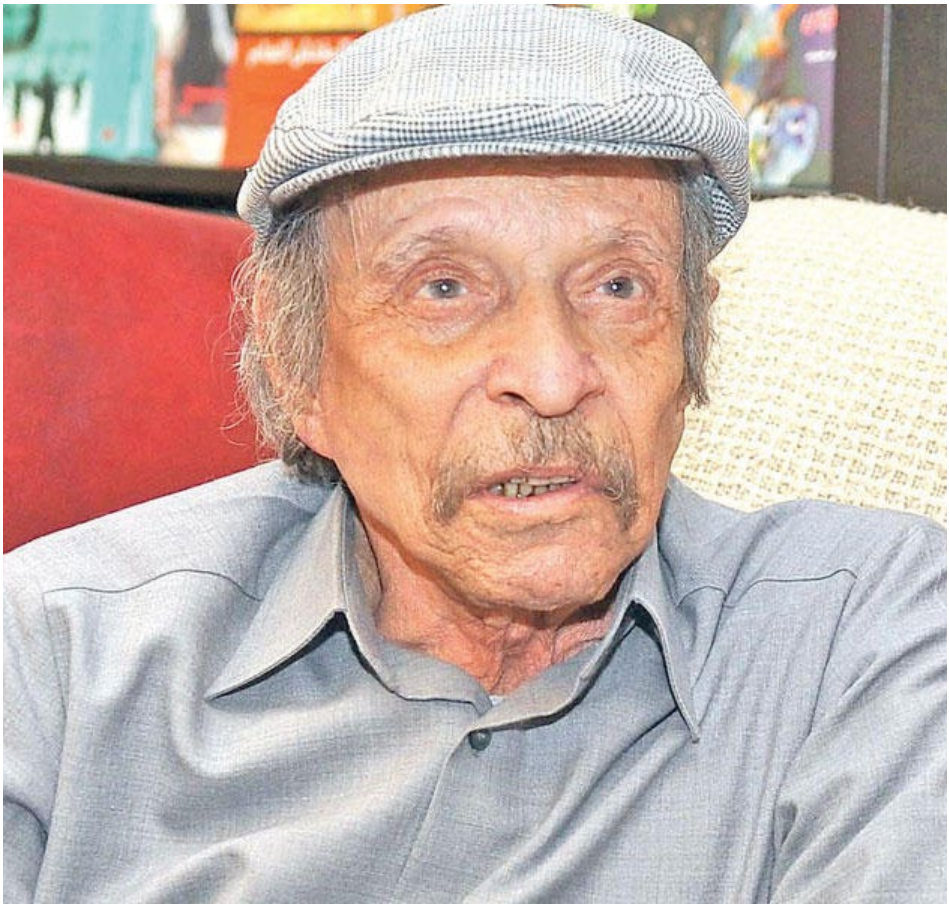

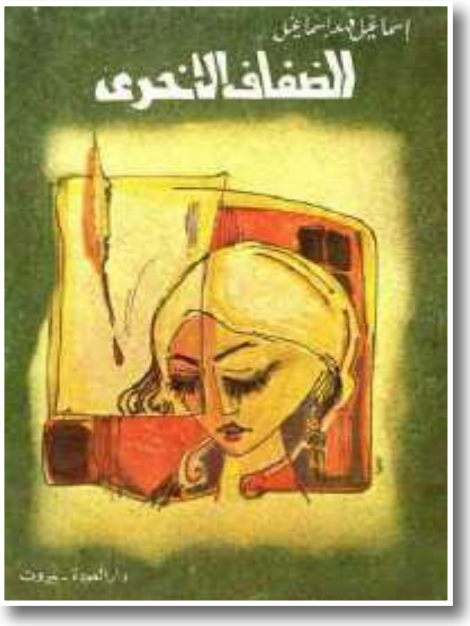

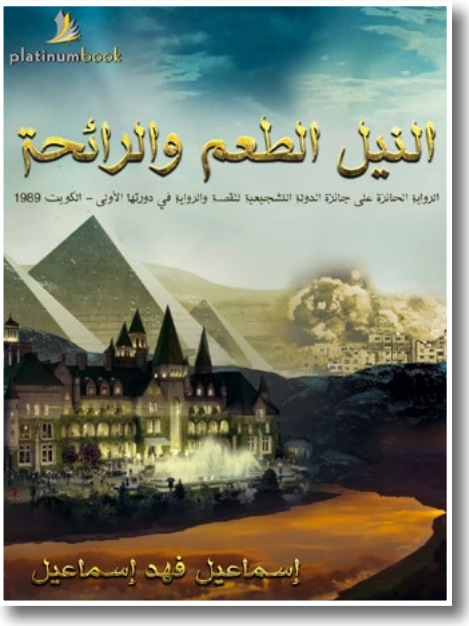

وقد افتتحت رواية (يحدث أمس) بإشارة من المؤلف ـ كالعهد غالباً في افتتاح الرواية ـ إلى أنها «ليست تسجيلية. ولأنها كذلك أجازت لنفسها اختلاق بعض المسميات والوقائع بما يناسب مرونة الزمن الروائي». ويعجل هذا الافتتاح باللعب حين ينصّ على أن «الزمن الفعلي للأحداث عامة زمن عظيم ولا شك، وليس ببال هذه الرواية أن تسئ إليه». وقد عادت الرواية إلى خمسينيات القرن الماضي حين غادر بطلها سليمان يوسف العراقي إلى الكويت، وصار فيها المدير العام لشركة صيانة أنابيب البترول. وبعد سبع سنوات يعود الرجل إلى قريته باب الهوى من سوار البصرة، فإذا بصرخة (قف) تستقبله، وإذا بالمعتقل ينتظره، فالثورة كانت قد قامت في 1958/7/14، وأمن الثورة يستبه بهذا العائد حاملاً عملات شتى وجواز سفر.

❑❑❑

إذا كانت كل رواية من روايات إسماعيل فهد إسماعيل تحمل قدراً

أو أكبر من علامات الحداثة الروائية الخاصة بهذا الكاتب، ففي كل رواية ترجح علامة من ذلك، أو أكثر. هكذا بدا الحفر في التاريخ في رواية (النيل يجري شمالاً: النواطير) بينما بدت المسرحة مميزة في (ملف الحادثة 67). وكما بدا التكثيف الزمني في الأيام الثلاثة لرواية (النيل الطعم الرائحة) سيبدو في رواية (الطيور والأصدقاء) حيث يستغرق (سهرة) مملة يقاوم فيها الرجل الملل بالتداعي وبالغرق في دخيلته بينما تستمرئ المرأة انبهارها بالغناء. وعلى نحو أبهى يأتي هذا التكثيف في رواية (خطوة في الحلم) التي تستغرق حفلة راقصة (سهرة أيضاً)، وعبرها تقدم حيوات السارد وزوجته وصديقه الفنان التشكيلي وزوجته ورجلي المباحث. وقد وسم الكاتب هذه الرواية بـ (مشروع رواية) وجعل لها مقدمة مقتطفة من قصيدة (مقدمة) للشاعر السوري سهيل ابراهيم. ومن هذه المقدمة تنداح المتناصات الشعرية في الرواية، مثلما انداحت في روايات شتّى للكاتب، فازدانت بأسماء أمل دنقل وعلوي الهاشمي وعبد الكريم كاصد وسواهم، كما ازدانت بمتناصات غير شعرية، منها من ذكرنا (الجبرتي)، ومنها في رواية (خطوة في الحلم) مما كتب مصطفى أبو لبدة.

تنطوي العلامات الخاصة بالحداثة الروائية لإسماعيل فهد إسماعيل تحت عنوان (التجريب)، وتتقاطع مع التجربة الروائية الحداثية العربية بعامة، وهذا ما تؤشر إليه لعبة التناص في روايات إسماعيل مثلاً، كما يؤشر إليه فعل تيار الوعي، أو التعدد اللغوي... ومن هنا كان لإسماعيل فهد إسماعيل موقعه المميز في صدارة المشهد العربي طوال العقود الأربعة الماضية، وبغياب سباعيته (إحداثيات من الزلة)، فكيف إذن لو حضرت؟

إسماعيل فهد إسماعيل
حبيبٌ في القلب وفي الذاكرة الروائية

كنت أعمل في جريدة الجمهورية بشكل يكاد يكون يوميا، محاولا التوفيق بين دراستي في جامعة ألسانيا بوهران، وحلمي الصحفي الذي تشبثت به منذ أن أعطيت لي الفرصة.

بقلم: واسيني الأعرج *

كنت عندما أجد فسحة بعد ترجمة مقالات الزملاء الفرانكفونيين، أستغل بعض الوقت للقراءة أو الكتابة. وكعادتي لا يمكنني ألاّ أزور مكتبة المدينة الواقعة في وسط أهم شارع في المدينة. كان يشتغل بها رجل طيب، عمي العاصمي، هكذا كنا نناديه. مثقف ومحب للكتب وكلما جاءه جديد نبهني إليه. وكثيرا ما كان يحجزه لي على الرغم من حداثة سني، عشرون سنة تقريبا. فوق هذا، هو أحد أحفاذ الولي الصالح، الحامي (في المعتقد الشعبي) لقريتي: سيدي بوجنان. كانت المكتبة مؤثثة بالكتب المفيدة. كنت قد فكرت في كتابة شيء في بحثي الأساسي في الليسانس، عن جورجي زيدان والتاريخ. كنت دائما أسمع من أستاذ الأدب الحديث أن جورجي زيدان شوه التاريخ الإسلامي وهو ما لم أكن متفقا معه فيه، على الرغم من حداثة سني. فقد قرأته كاملا بمتعة. لم أشعر في أي لحظة من اللحظات، بأي نفور. عندما

* كاتب جزائري.

عبرت عتبة المكتبة، صبّحت على عمي العاصمي وسألته عن جديد المكتبة. قال بلا تردد: كنت أفكر فيك وأنا أقرأ كاتبا اسمه إسماعيل فهد، يبدو لي أنه عراقي، أعجبني كثيرا. ليس سطحيا. يتوغل في أعماق شخصياته بقوة تجعلنا نقتنع بها. ثم أطلعني على كنوزه التي حدثني عنها، في عمق المكتبة. لم أكن أعرف شيئا عن الكاتب الذي ذكره لي عمي العاصمي الذي نبهني إلى سلسلة روايات إسماعيل فهد إسماعيل. ورغم إمكاناتي المادية المتواضعة، فقد أخذتها كلها بلا تردد:

1 – البقعة الداكنة– قصص– بيروت 1965.

2 – كانت السماء زرقاء – رواية– بيروت 1970.

3 – المستنقعات الضوئية– رواية– بيروت 1971.

4 – الحبل –رواية– بيروت 1972.

5 – الضفاف الأخرى –رواية– بيروت 1973.

6 – ملف الحادث 67 –رواية– بيروت 1974.

7 – الأقفاص واللغة المشتركة – قصص – بيروت 1974.

الروايات والمجموعات القصصية التي كانت قد صدرت وقتها. قبل أن أقرأه لاحقا بشكل كامل. ذهبت إلى جريدة الجمهورية، مكان عملي، بدأت أورق الكتب. لفتت انتباهي روايته الأولى «كانت السماء زرقاء»، بشكل خاص لا أدري لماذا؟ على الرغم من أنها كانت كلها قصيرة نسبيا. كانت بدايتها ممتعة. لغتها مدهشة. من هذه الناحية كان إسماعيل مايسترو، للأسف تخلى عن هذه اللغة لاحقا. شيء ما في رواية كانت السماء زرقاء أخذ بمجامعي وأسرني كليا. غير كنت قد قرأت قبلها بفترة وجيزة رواية «ما تبقى لكم» لغسان كنفاني. فشعرت كأن هناك شيئا مشتركا بينهما في الشعرية العميقة والتركيز، والاقتصاد اللغوي، والحدث السياسي الذي لا يخاف أبدا. وعندما بدأت أدخل في النص جاء من يسرق مني متعة الاندماج في النص. رئيس التحرير. قال بحب وخجل، وتلك عادته مع الجميع: واسيني هناك فنانان برازيليان جاءا إلى الجزائر أريدك أن تغطي الحدث. ليس بعيدا عن مقر الجريدة. أبعث معك المصور. هو رهن إشارتك. اكتب لنا شيئا عنهما. جاءا عن طريق سفارتهما التي اتصلت بالجريدة. يعرضان في مركز الفنون بالمدينة. حزنت لأني أديت واجب الترجمة وكان يفترض

أن أكون حرا متفرغا بالخصوص بعدما اندمجت مع رواية إسماعيل الأولى. انصعت للأوامر. كان اللقاء معهما جميلا. واستفدت من تقنيتيهما بشكل جميل. وطلبت من المصور أن يأخذ بورتري لكل واحد منهما لنشرهما في الجريدة. ثم أن يركز على بعض اللوحات التي استجابت للملاحظات التي سألت عنها الرسامين التشكيليين. وكتبت مقالتي الصغيرة في المقهى في بار دافئ مقابل للجريدة، بينما كان المصور قد ذهب لتحميض الصور في الجريدة. أنهيت المقالة. ثم وركضت نحو الجمهورية. كان القسم الثقافي قد فرغ تقريبا من الحركة. سلمت المقالة لرئيس التحرير وانسحبت كمن له موعد مع حبيبة لا يريد أن يخطئه. فرحة داخلية لا تقاوَم. ركضت نحو ساحة الحرية في وهران.، وركبت باصات الخط ٧ باتجاه حي اللوز. حيث الحي الجامعي العائلي الذي كنت أقيم فيه. دخلت إلى غرفتي محملا بأعمال إسماعيل فهد إسماعيل. صيدي الثمين من مكتبة المدينة. وانهمكت من جديد في قراءة كانت السماء زرقاء. أقرأ وأعض على شفتي السفلى كيف لم أعرف من قبل كاتبا بهذه العظمة والقوة؟ تكونت لدي قناعة إني أخيرا عثرت على كاتبي. كل ما وصفه في كانت السماء زرقاء، في الرحلة القاسية عبر البراري الخالية والوديان والسبخات النتنة والمياه الآسنه، في لحظة الهروب، كان قويا. قضيت الليلة كلها سهرانا مع الرواية. أعتقد حتى الخامسة فجرا. لم أنم إلا ساعة واحدة قبل أن أركض نحو باص الحي الجامعي باتجاه جامعة السينيا. كانت عيناي متعبتين ومتورمتين من قلة النوم، لكني كنت أشعر بلذة غير مسبوقة. كيف حدث ذلك؟ ما السر؟ أول نص أقرأه له لإسماعيل. كان كل شيء منظما بشكل دقيق مثل البوزل، وفي مكانه الطبيعي. أكاد أتذكر هذه الحركة وهذا الركض لدرجة اللهاث وراء الكاتب وأبطاله الهاربين: «أحس بالأشواق تأخذ بثيابه «أركض» لا زالت تدوي في أذنيه، هو يركض، حياته كلها سلسلة من الركض المتواصل، هو هارب، هارب من كل شيء، حتى من نفسه. قبل ساعات حاول عبور الحدود بمعية أكثر من عشرين شخصاً. كانت الساعة تقارب الثانية بعد منتصف الليل عندما وقعت الحادثة. النوتي قال: سأعبر بكم شط العرب قبل الفجر بقليل. سآخذ النقود مقدماً. أنزلكم وراء مصافي النفط...» على الرغم من أن الرواية مبنية على إيقاع واحد، الركض، فلا ملل أبدا. تكاد تكون قصة مكثفة في أسلوبها وأحداثها. لكن الذي

منحها اتساعا أكبر هو كونها مبنية على رحلتين يخوضهما البطل مرغما بحثا عن الحياة ودرءا للموت البليد. لا خيار له إلا خوضهما إن هو أراد لحياته مستقبلا آخر. ويشكل الهروب فيها، ليس فقط منجاة للكاتب ولكن ثيمة حقيقية تتبني عليها سرعة اللغة وعدم ميلها للتفاصيل الزائدة والمترادفات التي تثقل النص السريع في حركيته. وفي الهروب تصل المعاناة إلى سقفها لدرجة تنتابنا الرغبة في إيقاف الروائي عن تعذيب أبطاله. هذا ما شعرت به وأنا أقرأ يومها الرواية بلا توقف. وكأن أي توقف كان سيؤدي بي إلى الهلاك. تظهر بوضوح، في الرواية، قدرة أسماعيل على اللعب بتيار الوعي كما يشاء. نحن باستمرار نعيش لحظة الهروب وقسوتها ووديانها ومجاريها والارتحال ليلا، ونعيش في اللحظة نفسها داخل البطل السري، الهارب من موت أكيد باتجاه مبهم افترض النجاة فيه. هذه الخلفية الداخلية تضيء لنا المصاير السابقة والأحلام الممكنة لبطل الرواية. لم أتخلص من تلك الرواية طوال حياتي. وعلى من أني قرأت إسماعيل في كليته الروائية، فقد ظلت: كانت السماء زرقاء هي طريقي الدائم نحو إسماعيل. فقد جعلني سلطانها ألغي بحث تخرجي عن جورجي زيدان وأعوضه بآليات السرد في رواية كانت السماء زرقاء. لهذا قلت لإسماعيل أول ما التقيت به في الكويت، في منتداه الأسبوعي: حبيبي إسماعيل لك الكثير من الحق والفضل، في شهادة الليسانس التي تحصلت عليها بفضل بحث قمت به عن كانت السماء زرقاء.

استمرت هذه الرواية زمنا طويلا في ذاكرتي الروائية أيضا. عندما كتبت روايتي الأولى بالمعنى الأدبي والفني في نهايات السبعينيات: الوقائع (وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر) كانت رواية إسماعيل حاضرة فيها بعمق، والتناص معه قويا. لم أدرك هذا إلا لاحقا. فقد اخترت تيمة الهروب. هروب سجينين من السجن المركزي في المدينة. وكل المدينة تتم في هذه المدارات. ومن خلال لحظة الهرب التي استوعبت حوالي الأربعمائة صفحة كانت روح إسماعيل الأدبية حاضرة ومعها فيلم اسمه الهروب كنت قد رأيته وقتها. لا يمكن للكاتب أن يتنصل من الأشياء الجميلة وكما يقول جيرار جينيت: البشرية في النهاية لا تكتب إلا نصا واحدا. ونقضي العمر الكتابي كله في محو ما يشبه الكتاب الآخرين الذين شكلوا لنا ذاكرة تقنية وموضوعاتية، ولكن في الوقت نفسه ننشئ ما يشبهنا ليكون الإبداع لنا، ويعبر عن جهدنا الخلاق الذي

يرفض أن يكون ظلا مقلدا لما مر عليه من كتب دخلت عميقا في نسيجه اللغوي والفكري والسردي. لهذا أقول دائما، ليس تواضعا ولكن حقيقة، أدين لإسماعيل فهد إسماعيل فيما أنا عليه اليوم إبداعيا. قلتها له في حياته في لقاء عام في الكويت لدرجة أن قال: خجّلتني يا رجل. وأقولها اليوم وقد أصبح روحا حية انتقلت نحو الديمومة باندماجها بأرواحنا أبدا.

كم كان غيابه مؤلما في زيارتي الأخيرة للكويت (أكتوبر ٢٠١٨). كلما ذهبنا نحو بلد ركضنا نحو من نحبهم ومن يعنون لنا الشيء الكثير. كان دائما في الصفوف الأمامية. أراه بحركاته الخجولة. كان من الصعب علي أن أرى الكويت دون اللقاء بإسماعيل في مكتبه ومكان عمله، أو في بيته الجميل الذي يشبه متحفا بفيض مقتنياته ولوحاته. عزائي الكبير أني رأيت جزءا من أهله القريبين إلى قلبه، الجيل الذي ظل إسماعيل يراهن عليه بكل قواه. مجموعة من الشباب الأوفياء لمعلمهم الأول الذي لم يدخر أي جهد لمساعدتهم والدفع بهم إلى الأمام في ساحة أدبية حية لا تقبل بأنصاف المواهب. ورّثهم الحب والخير والتواضع وجدية الإبداع والإصرار على الحق والحق دوما.

طوبى لتلك الروح السخية التي لم يأخذ منها الموت إلا خارجها، وفشل في أن يسرق داخلها لأنه منحها لنا بسخاء العاشق الكبير: كتبه.

تنويه واعتذار

ورد في العدد السابق (581 – شهر ديسمبر)

خطأ بتعريف الشاعرة القديرة

ندى يوسف الرفاعي

والتعريف الصحيح: هي «شاعرة كويتية»

مع الاعتذار للشاعرة والقراء

رحيل والد الأجيال الروائية

بقلم: طلال سعد الرميضي*

مع بداية تساقط أوراق الشجر المصفرة في ليالي فصل الخريف الكئيبة، ووسط لمعان أشعة الشمس الهادئة صُدم الوسط الثقافي برحيل والد الأجيال الروائية الأستاذ الإنسان إسماعيل فهد إسماعيل

فكان غيابه مفاجئاً ومؤثراً، سبّب لنا جميعاً فاجعة مؤلمة حملت إلينا اللوعة والأسى.

ونحن إذ ننعي هذا الأديب (التاريخ) فإننا نستذكر بكل اعتزاز ما حققه للرواية الكويتية في فترة السبعينيات من القرن الماضي حيث حقق تحولاً نوعياً وفنياً للرواية ووضع منهجهاً على المسار الصحيح، ليصبح الراحل مَدرَسة في الأدب الروائي سارت على نهجه أجيال عديدة، وحقق الكثيرون منهم التفوق الروائي.

كما نستذكر جهود المغفور له -بإذن اللّه- في أنشطة رابطة الأدباء وإقامة ورشة ضخمة لأعضاء منتدى المبدعين في كتابة الرواية، استفاد منها الكتاب الشباب وعاملهم بروح أبوية جميلة تدفعهم لطريق الإبداع والتميز وحمل راية القلم بكل أمانة، كما تنوعت أعمال الراحل بين الرواية والقصة والمسرح والنقد، ليحمل باقتدار صفة الأديب الذي تفتخر الكويت بكونه حقق حضورا ليس فقط محلياً بل عربياً كذلك.

وكعادتها رابطة الأدباء في الوفاء والحنين لقاماتها الأدبية الكبرى، عقدت الرابطة فعالية خاصة في مطلع موسمها الثقافي الحالي تحمل عنوان (شهادات وذكريات عن الإنسان الأديب إسماعيل فهد إسماعيل) شارك فيها باقة من محبيه رثوه بكلمات مؤثرة يحوفها الحزن والألم، وأبدع د.حسين الحاتم في سرد جمالياته الروائية، ونظمت ندوة أخرى قبل أيام بعنوان (الإنسان والمجتمع في أدب إسماعيل فهد إسماعيل) حاضر فيها د.صلاح الدين أرقه دان، كما خصصت الرابطة هذا العدد من مجلة البيان تقديراً ووفاء له ليسجل الأدباء بعضاً من عصارة أقلامهم على صفحاتها الباكية، ولن يتوقف صوت أبي فهد عن ملامسة شغاف قلوبنا ومناجاة عقولنا، وستستمر رابطة الأدباء في تنظيم الندوات والفعاليات إكراماً له لأنه علم نستنير به دائماً.

رحم اللّه الأديب الكبير والد الأجيال الإبداعية إسماعيل فهد إسماعيل وغفر له وأسكنه فسيح جناته. ونسأل اللّهَ عز وجل أن يتغمده بواسع رحمته ويلهمنا وأهله الصبر والسلوان.

* أمين عام رابطة الأدباء الكويتيين - المشرف العام على «البيان».